أجاثا كريستي

الجثة التي اختفت



المتهم

عندما بلغ القطار القادم من "نيويورك" محطة "سان فرانسيسكو" كان هناك ستة على الأقل من كبار مخبري الصحف ينتظرون هبوط رجلين منه ، هتف احدهم وهو يشير إلى رجلين طويلي القامة قويي البنية يسرعان نحو باب الخروج :

- ها هما !

والتفت إلى رفيق له فدفع به نحو الباب قائلا :

- هيا .. اعد آلة التصوير .

تبعهما البالرد وهم يتفرسون في اول القادمين وبدأ بعضهم يدون ملاحظاته : يد تشوهها الندوب تشويها فظيعا .. الطول نحو ست اقدام وبوصة .. الوزن يرجح ان يكون حوالي واحد وثمانين كيلو جراما .

ولكن الوصف وقف عند هذا الحد : أهو اسمر ام اشقر ؟ حليق ام ذو شارب؟ فلم تكن العين تتبين ما يعلو منكبيه اكثر من ياقة معطفه وقبعته .

راح الصحفيون يتبادلون النظرات حائرين ، وحاول المصورون اخذ لقطات من مختلف الزوايا فتلفت الواحهم بدون ان يظفروا بطائل، وكان عسيرا عليهم ان يردوا انفسهم على الاقتناع بالحقيقة الماثلة امامهم ، فما راوا قبل اليوم متهما لا يعلن بكل وسيلة براءته ونقاء صفحته .

وساروا على جانبي الرجلين بخطى حثيثة حتى لا يسبقاهم وهم يسالون المتهم :

- لماذا قتلته ؟ لا .. ليس هذا ما نقصد .. هل قتلته ؟

ومضوا يمطرونه بالاسئلة ويحتالون في حمله على الكلام بدون ان تبدر اية حركة من وراء ذلك المنديل الذي يخفي به وجهه .

فلما يئسوا منه اتجهوا إلى صاحبه قائلين :

- ما رأيك ايها الصديق ؟

واجاب العمدة :

– لا فائدة ايها الاصدقاء فلن يتكلم .

وقال أحدهم للمحتقل متملقا :

– هيا يا صاح .. قل شيئا ولو على سبيل الراحة والاستجمام من هذا الصمت المضني الثقيل !

وهم العمدة بالكلام ولكن بصره وقع على اليد القابضة على المنديل فسرت في بدنه رعدة . الا ما ابشع منظرها ! إنها لا تشبه ايدي الاحياء في شيء؛ فاللحم مشوه جاف تكاد العظام تبدو من تحته .

وقال :

– لقد انبأتكم انه لن يتكلم..

– ما خطبه ؟ هل هو ابله ؟

أجاب العمدة متبرما :

– لا تسألوني؛ فما نطق بحرف خلال رحلتنا من اقصى الشرق إلى اقصى الغرب.

وأخذ الصحفيون ينظر بعضهم إلى بعض في حيرة وقنوط ، فلما استوقف العمدة إحدى السيارات الاجرة وصعد إليها مع اسيره لم يحاولوا استيقافهما لحظة أخرى .

ولكن محافظ السجن الذي اقتيد إليه المتهم لم يكن اكثر توفيقاً من العمدة ورجال الصحف على كثرة ما حاول إقناعه بالكلام . ولكن هذا كله لم يفت في عضد المحامي الشاب الذي قصد إلى السجن في اليوم التالي طالبا مقابلة السجين ، فقال عندما اخذ إلى زنزانته :

– إنني ادعى "فلمنج" وقد ندبت للدفاع عنك .

وقف الشاب لحظة يتفرس في وجه السجين ولكنه لم يفه بحرف . وعاد المحامي يقول في صوت لين ناعم كصوت الناصح الشفيق :

– إني لا استطيع ان اعمل من اجلك شيئا ما لم تتكلم . قل شيئا استطيع الاعتماد عليه في الدفاع عنك . إن النائب العام لا يعتقد انك قتلت الدكتور "تالبوت" فحسب بل يعتقد كذلك انك كنت تبتز منه نقودا بالتهديد قبل مقتله بعدة اشهر . وإذا كان هذا صحيحا فلا ريب انك تعرف من امره ما كان يرهبه ويخشاه . فما السر ؟ لقد كان الدكتور "تالبوت" عضوا محترما في المجتمع لا يعرف عنه الناس إلا ما يوحي بالثقة والاحترام ثم اقترف شيئا جعله يرهبك ويخشاك ، فما هو ؟ ماذا كان يخفي عن الناس ؟ ماذا اقترف؟

كف المحامي الشاب عن الكلام واخذ يتامل وجه السجين متفحصاً ثم نهض عن مقعده وقال وقد فقد صوته شيئا من لينه ورقته :

– حسنا . إنك تعرف ما يعنيه قرار المحلفين انك مذنب ، فمن الخير أن تتروى في أمرك وتتدبر عواقب صمتك .

ظل السجين جامدا كالتمثال وهو يسمع صرير المفتاح في القفل بعد خروج المحامي الشاب ، ووقع قدميه وهو يبتعد في الممشى ، ولكنه لم يات بحركة بيد ان صدى صوت المحامي كان لا يزال يتردد في خاطره : « كان الدكتور "تالبوت" عضوا محترما في المجتمع لا يعرف عنه الناس إلا ما يوحي بالثقة والاحترام ، ثم اقترف شيئا .. فما هو ؟ ما الذي فعله ؟ ماذا كان يخفي عن الناس ؟ ... »

- 1 -

لم يكن ثمة ما يحمل الدكتور "رتشارد تالبوت" على الابتسام سوى ما يجده في نفسه كل صباح من دواعي الرضا والارتياح، ولقد كان في اكثر الايام لا يكاد ينظر إلى تلك الدواعي والاسباب ، ولكن الشمس في هذا الصباح قد انسابت إلى الغرفة وغمرتها بفيض من البهجة والإشراق ، فاختلط عسجدها بشعر ابنه "جريجوري" وهو منحن على الطعام ، وانعكس سناها على إبريق القهوة امام زوجته " لوسي" ، وذكرت الطبيب بما في الحياة من دعة وهناءة لاسيما حياته مع زوجته "لوسي" وولديه "بوني" و "جريج" في هذا البيت الهادئ المطمئن . ومن غير "لوسي" تستطيع مثل هذا الإبداع في تنسيق الاثاث وتصفيف التحف والأزهار والملاءمة بينها وبين غرف البيت في ذوق سليم جميل؟ ونظر "تالبوت" إلى زوجته عبر مائدة الفطور - وقد امتلأ فؤاده فجأة بمشاعر الحب والتقدير - فلمح في شيء من الجزع ما ارتسم على جبينها الناصع من خطوط لا تزال دقيقة خفيفة .

مسكينة "لوسي" ! إنها لتسرف على نفسها في العناية بشؤون البيت وإن كانت قد احسنت تربية الصغيرين كل الإحسان . وما نزعم انها جعلت منهما مثلين من امثلة الطفولة الفذة الخارقة ولكنهما خليقان بان يعتز بمثلهما الآباء ويباهوا .

إليك "جريجوري" مثلا . . ها هو ذا قد اشتد ساعده وصلب عوده واخذ يتقدم نحو طور الشباب بخطى حثيثة ثابتة . وهو من خيرة اللاعبين في فرق الرياضة بكليته ، ومن أوائل الطلبة في الدراسة ، وله بين اقرانه كثير من الأصدقاء الذين يصفونه بالمودة والحب لدماثة خلقه وطيب شمائله .

اما "بونيتا" فإن بينها وبين أبيها تفاهما روحيا وثيقا وإن لم يجمل بالأب ان يؤثر احد أولاده بالقسط الأوفر من عطفه ومحبته .

ولقد كان في الطفلين بعض نواحي النقص والقصور بطبيعة الحال ، فإن "جريج" اقل ضحكا ومرحا مما ينبغي لابن الرابعة عشرة ، اما "بوني" فإنها . .

وهنا تنبه "تالبوت" فجاة إلى صوت زوجته وهي تقول :

– لا أدري كيف لا تستطيع "بونيتا" المحافظة على المواعيد ؟ إن "جريج" لم يتاخر قط .

فقال "جريجوري" وهو يغمز بعينه من تحت خصلة متهدلة من الشعر :

– لو رفعتم المرايا من غرفتها لما تاخرت كل هذا التاخير .

قال الطبيب :

– إن "بونتي" تنمو وتكبر وتريد ان تكون جميلة ، والجمال في اعتقادي شغل كل فتاة ، تشق على نفسها في سبيله ، وتنفق الساعات الطوال في استكمال اسبابه ، وخليق بنا الا نضيق بفتاتنا إذا ما ذهبت في ذلك مذهب اترابها ولداتها .

وهنا بدت "بونيتا" على راس السلم ، وكانت تسير حقا في طريق النمو ، رشيقة في غير ضعف، ذات عينين زرقاوين ، وشفتين ممتلئتين تفيضان بدلائل الحيوية والنشاط . وهبطت الدرجات في خفة ورشاقة وعبرت قاعة الطعام إلى النافذة إذ فتحتها على مصراعيها ووقفت امامها تتنفس نفسا عميقا ، ثم انثنت نحوهم قائلة :

– سعدتم صباحا .. الم يلاحظ احد منكم ؟ إنه الربيع .. وهاهوذا النبت ينبثق من الارض والطبيعة تدب فيها الحياة .. الا تشعرون بها ؟

فتمتم "جريج" :

– إنني اشعر بتيار لاذع !

وضعت السيدة "تالبوت" طبقا في مكان "بونيتا" من المائدة وقالت في حزم رصين :

– هل لك ان تغلقي النافذة وتجلسي لتناول الفطور يا "بونيتا" ؟

فاذعنت "بونيتا" وهي تتنهد قائلة :

– إن المرء إذا تاخر عن الموعد مرة واحدة في هذا البيت لاهتزت اركان الارض !!

قالت امها :

– لا تزمجري يا عزيزتي .

فقال ابوها مهدئا :

انت جميلة هذا الصباح يا "بوني" .. جميلة جدا .

– لا تفسدها يا "رتشارد" .. إني لاشعر – في الحق – بشيء من الانزعاج، إذ احاول دائما ان اضع لهذا البيت نظاما ثابتا فتقلبه "بوني" راسا على عقب .

فقال الطبيب في لين :

– اي ضير في ان تتاخر بضع دقائق ؟

قالت السيدة "تالبوت" معنفة :

– ليست المسالة مسالة بضع دقائق ،ولكنها تعودت التاخير والعبث بالمواعيد .. لقد كان ابي يحرص على ان اعنى بمثل هذه الاشياء .

قال الدكتور "تالبوت" :

– إن اباك كان .. ولكنه فطن إلى خطئه فاستدرك قائلا : كان رجلا على شيء من الصرامة .

اجابت :

– إن ابي كان رجلا يعول عليه ، وهذا سر نجاحه وسر نجاحك ايضا .

– ولكن "بوني" لا تنوي ان تكون طبيبة يا عزيزتي .

– لابد للمرء من ان يروض نفسه على شيء من النظام ، فإنه إذا تعود الإهمال في التافه من الامور لم يلبث ان يهمل في الخطير منها .

وادرك "تالبوت" ما تطلبه منه زوجته ، فالتفت إلى "بوني" قائلا :

– إن امك على حق ، فلاذكري ذلك يا "بوني" .

رفعت "بونيتا" عينيها إلى ابيها فادركت ما يرمي إليه وتكلفت مظاهر التوبة والندم ، ورضيت بذلك السيدة "تالبوت" فانصرفت إلى الإشراف على النظام وإن

لم تغفل عن ذلك قط في اثناء دفاعها عنه ، وما كاد "تالبوت" يتهيأ للقيام عن المائدة حتى كانت تعبر القاعة لتمد له قبعته ومعطفه ، وقالت :

– والآن لا تنس .. العودة في الساعة السابعة .. هه ؟

– اجل يا "لوسي" .

وراح يتعجب في نفسه من تكرار هذا السؤال كل صباح وما عساه ان يحدث لو اعلن إليها مرة واحدة مرة واحدة فقط عزمه على التاخير؟ وعادت تقول:

– إن هذا مهم جدا الليلة بصفة خاصة لاننا مدعوون إلى تناول العشاء عند "آل مورجان" ، اتذكر هذا ؟

– ساكون هنا يا عزيزتي .

كانت يده على مقبض الباب وقد انعكست اشعة الشمس الدافئة من الزجاج على ذراعه فقال :

– إنك ترين يا "لوسي" ان "بوني" كانت على حق ، إنه يوم بهيج رائع .

قالت بدون اكتراث وهي ترفع قطعة من القطن عالقة بكتفه :

– إنه جميل .

– لا ريب ان الجو الآن بديع بالجبال .

ثم ارتد عن الباب كانما جاءه خاطر فجائي وقال :

– لا إخالك تحبين ان نذهب إلى الكوخ لقضاء عطلة الاسبوع ؟

– ليس في هذا الاسبوع ، فإني ذاهبة مع الطفلين لزيارة امي .

– حسنا .

ولاشد ما كان "تالبوت" يتمنى احيانا لو تجاوزت زوجته حدود نظامها المحكم الدقيق قليلا ، لماذا لا ياتيان ما بين وقت وآخر امرا لم يتخذا له اهبة ويضعان له خطة ويحددان لفعله موعدا كالاحتفال بمقدم الربيع ؟ إن الازهار لتتفتح الآن في اكمامها حول الكوخ وتوشي الحديقة بالوانها المشرقة الناضرة بدون ان يتملى

جمالها احد، ولا ريب ان السيدة "تالبوت" احست بما يدور براس زوجها فقالت :

- إني أعلم ان بين يديك كثيرا من الاعمال ولم تبدأ بعد في وضع رسائلك للجمعية الطبية .

- بلى . .

إن "لوسي" لعلى صواب كعهدها دائما ، ولكن "بولي" يسرها بلا ريب ان تذهب إلى الكوخ ، و"جورج" لابد ان يصيب هناك كذلك كثيرا من اللذة في التجديف وصيد السمك، بل لعل "لوسي" نفسها راغبة في الذهاب ،ولكن واجباتها نحوهما لا تترك لها مجالا للتفكير في رغباتها ومشتهياتها ، بيد ان الامر رغم ذلك يستحق ان يحاول إقناعها .

وقال :

- لقد ظننت يا "لوسي" انني ربما استطعت . .

وهنا قطع عليه كلامه جرس الهاتف فمسحت "لوسي" وجنته بشفتيها واسرعت لتجيب النداء .

لم يكن في نفس "تالبوت" شيء من الاستياء حين اغلق الباب بعد خروجه وصعد إلى سيارته . إن زوجته وولديه لم يروا قط ذلك الكوخ الذي ابتاعه في العام الماضي من اجلهم، وهو موقن انهم سيحبذون رايه لو استطاعوا مشاهدته مرة واحدة، على ان الامل في ذلك لم ينقطع بعد، فلا يزال في الربيع متسع لذلك، ولكن المرء يستطيع مع ذلك ان يستمتع بهذا اليوم الدافئ الجميل بدون ان يبرح "سان فرانسيسكو" . وقد انزل "تالبوت" غطاء السيارة وانحرف بها عن طريقه العادي إلى الحديقة العامة واخذ يدور بها في طرقاتها التي تحف بها الاشجار . ونظر في ساعته فإذا بها قد جاوزت التاسعة بثلاث دقائق ، ولكن هذا التاخير الطفيف لا يهم على كل حال .

ولما بلغ العيادة وجد بها احد المرضى ففال وهو يقوده إلى الغرفة الصغيرة التي

يفضي إليها مكتبه ويشير إلى أريكة بها :

- هنا يا سيد "بيلي" . .

وبعد أن فحصه فحصا دقيقا طويلا عكف على تدوين ملاحظاته على حين كان المريض يرتدي ثيابه، ثم راح يقارنها بالملاحظات السابقة عن حالة المريض ، وسرعان ما وضع مذكرته في الملف الخاص به حتى فرغ المريض من ارتداء ثيابه ولحق به إلى المكتب .

وأقبل زميله الأصغر الدكتور "موريان" هاتفا :

- أسعدت صباحا يا "رتشارد" .

فنظر إليه "تالبوت" من وراء مكتبه في استياء! فلو تأخر هو أيضا ساعة كاملة بدلا من بضع دقائق لا نصرف هذا المريض مع خطورة حالته . إن زميله يستغل مواظبته على المواعيد استغلالا لا يبعث على الارتياح .

وأجاب في تؤدة :

- سعدت صباحا يا دكتور .

ولكن "موريان" لم يتأثر بما في هذا الرد المقتضب من فتور . وقال "تالبوت" مخاطبا المريض :

- أنصح لك يا سيد "بيلي" ألا تكلف نفسك أي مجهود جسمي أو فكري في الأيام القلائل المقبلة . وإذا شعرت ببوادر نوبة جديدة فلابد أن تتصل في الحال بالدكتور "موريان" أو بي .

- سأفعل .

وتناول "تالبوت" الملف قائلا :

- إنك تقيم بجمعية الشبان المسيحية ، أليس لك من الأهل أو الأصدقاء من تستطيع الإقامة معهم ؟

فوقف "بيلي" عن العبث بقبعته ونظر إلى الطبيب ثم أطرق قائلا :

– لا اذكر احدا . لماذا ؟

– إن هذا ادعى إلى الاطمئنان .

ولحظ ما عرا الرجل من الاضطراب فاستدار قائلا :

– اعني انه من الممكن دائما ان . . .

فقاطعه "بيلي" وقد اختفت دلائل تخاذله واضطرابه :

– إني افهم ما ترمي إليه . هذه مدينة عظيمة مترامية الأطراف وليس فيها من يعنيه ان يعرف احي انا أم ميت ؟!

وابتسم المنكود ابتسامة اثارت في نفس "تالبوت" عاصفة من السخط على قصور الطب وعجزه .

وقال "موريان" :

– اعتن بنفسك يا "بيلي" .

فاوما المسكين برأسه في استغراب وهو يمر به في طريقه إلى الخارج .

- 2 -

كانت غرفة "تالبوت" هي الغرفة الوحيدة بالعيادة التي ينبعث منها الضوء بعد السادسة والنصف ببضع دقائق . وكانت ضجة المرور تنفذ إليها مبهمة غير واضحة والطبيب عاكف على تنظيم مكتبه وتطهير ادواته كعادته . وقد تاخر عشر دقائق عن موعد انصرافه لكي يعوض تأخيره في الصباح .

طرق سمعه فجاة صرير كابحة سيارة بالشارع وصيحة لهف وفزع ثم صفير حاد من صفارة شرطي المرور ، فهرع إلى النافذة وراى مزدحما من السيارات والمارة ، وسرعان ما أخذ حقيبته وهبط السلم وثبا .

راى الشرطي يدون ملاحظات في دفتره وهو يتحدث إلى رجل يرتدي ثياب سائقي السيارات ، وبجانبه لفتاة مطروحة على الارض . وما كاد يلمح "تالبوت"

برادئه الأبيض حتى بادر إلى تفريق المزدحمين لإفساح الطريق له .

جثا الطبيب بجانب الفتاة واخذ يجس نبضها ويتسمع دقات قلبها ويستوثق من سلامة العظام ثم قال للشرطي :

- يحسن أن تنقلوها إلى عيادتي .

وما كاد الشرطي والسائق يحملان الفتاة ويغيبان بها في العمارة حتى تفرق المحتشدون وهم يشعرون بشيء من مرارة الخيبة لحرمانهم من متعة التسكع والفضول .

القيت الفتاة تحت ضوء مصباح قوي وإذ بدأ "قالبوت" بفحصها تبين أن إصابتها لا تتجاوز رضا بسالها ، وهي إصابة خفيفة يستطيع علاجها بنفسه، ولكنها عندما فتحت جفنيها واجالت بصرها في الغرفة ثم راحت ترنو إليه لم يجد "قالبوت" مناصا من الالتجاء إلى نظارته .

وكانت رائعة فاتنة ، ذات شعر مسترسل ذهبي ، ووجه مشرق جميل ، وعينين زرقاوين ساحرتين . ولاح له أنها مزهوة بجمالها ، عارفة بفتنتها وسحرها ، وأن ثيابها أشد أناقة من كل ما رأى على غيرها من النساء ، ومنظرها يفيض برقة الأنوثة وروعتها .

وقف يرقب عودتها إلى الوعي وقد خيل إليه أنه يقرأ في وجهها سمات الرضا والارتياح ، كما خيل إليه أنه مبعث هذا الشعور وإن لم يدر لذلك سببا .

نظرت الفتاة إلى معصمها فجأة فهتفت :

- أين سواري ؟

أجاب وهو يخرجه من جيبه ويقدمه إليها :

- إنه .. معي .

قالت :

- أميتة أنا أم أوشكت أن أموت ؟

- لا ، بل اخشى عليك فقط .

وراحت تتحسس مفاصلها وهي تقول :

- الم اترك بالشارع شيئا .. ساقا او ذراعا ؟

- إن بك كدما شديدا فوق الركبة ، ولكن إذا لم تكن ثمة إصابات داخلية ..

فاستوت جالسة على الأريكة وشمرت ثوبها عن ساقيها ونظرت إلى الكدم قائلة:

- اف ! إن منظره ليس بجميل !

- ارجو ان تضطجعي .

ضمد لها الكدم ثم راح يجس اضلاعها في رفق وهو يسألها :

- اتحسين بالم ؟

- لا .

ونقل يديه إلى بطنها وضغط بخفة ، فصاحت :

- ترفق قليلا !

- الا تتحملين الضغط ؟

- بلى ، ولكني افزع من الدغدغة .. اتظنني اعيش ؟

- اجل .. اعتقد انك ستتعافين مما اصابك .

- لا حاجة بك إذن إلى التجهم والعبوس .

طرق سمعها صوت رجلين خارج الغرفة احدهما يقول في حدة :

- إنك لا تملك حجزي فقد كان الحادث عارضا لا يد لي فيه كما اخبرك كل من شهده .

قال الرجل الآخر :

- سنرى ماذا تريد هي ان تقول فالزم الهدوء .

- حسنا .. ولكن حذار ان تحاول ان تلصق بي ذنبا لم اقترفه فساوكل محاميا .

- صه !

اومات الفتاة نحو الباب قائلة :

– علام كل تلك الضجة ؟

اجاب "تالبوت" :

– إنهما الشرطي وسائق السيارة يريدان ان يوجها إليك بضعة اسئلة ..

قالت :

– فليحضرا .

فقال "تالبوت" وهو ينظر إلى طرف ثوبها المرفوع :

– ولكني لم اتمه بعد .

ونظرت إليه فرأت في وجهه سمات الجد ، وقالت :

– لا احفل بذلك .. فليأتيا .

اقبل الشرطي والسائق إلى الغرفة . وسألها الشرطي وهو متأهب للكتابة في دفتر مذكراته :

– بم تشعرين يا آنسة ؟

اجابت :

– لقد انتهى الآن فحصي .

فانتهز السائق الفرصة واندفع قائلا :

– انظري يا سيدتي : إنه لم يكن لي في الحادث ذنب؛ إذ إنك خرجت مسرعة ..

قاطعه الشرطي قائلا :

– الا تصمت يا صاح ؟ انتظر حتى افرغ .

ثم التفت إليها قائلا :

– يجب ان اقدم تقريرا على كل حال .. فما اسمك ؟

– "برنتيس" .. "نورا برنتيس" .

– واين تقيمين ؟

فقالت – وهي تنظر إلى "تالبوت" ، لترى هل يصغي إلى كلماتها :

– مساكن "جولدن جيت" في هذا الشارع على الجانب الآخر .

– وما صناعتك ؟

– مغنية في أحد الملاهي .

– هل تريدين أي تعويض ؟

فثارت ثائرة السائق وصاح :

– أي تعويض ؟ لقد قرر الدكتور انها لم تمس بسوء .. لماذا ؟!

قاطعته الفتاة قائلة :

– اصرف النظر عن هذا الحادث، فإني اعتقد انني المخطئة .

فنظر السائق إلى الشرطي وفي وجهه دلائل القرف وقال :

– هل سمعت ؟ ثم قال لها :

– شكرا .. إنك لسيدة حقا .

قالت بعد انصراف الرجلين :

– ارى انني أحدثت اثرا طيبا بنفس السائق !

لم يكن "تالبوت" يحب ان يظهر امامها بمظهر الرجل الفظ المخشن ولكنه لم يدر أي جواب تتوقع منه على عبارتها هذه ، وراح يكد ذهنه عبثا في استنباط قول ملائم ، فثبت نظارته على انفه وتناول ربطة من الضمادات وقال :

– يحسن بنا ان نضع هذه الآن . واشار إلى ذيل ثوبها الذي اسدلته قليلا عند دخول الشرطي وقال :

– هل تسمحين ؟!

اخذت الفتاة تراقبه وهو يثبت الضمادة على المكدم باصابعه الرشيقة ثم سألته فجاة :

– الست الدكتور "تالبوت" ؟ لقد رايتك قبل ذلك من نافذة مسكني ، لا

إخالك تعرف ذلك ؟

قال وهو يلف الرباط :

– إنك في مثل هذه المدينة الواسعة لا تعرفين جارك الأدنى ، هل تجدين الرباط شديدا ؟

– ولكني أعرفك، بل لقد كنت أضبط ساعتي عليك فهي التاسعة عندما تحضر في الصباح أيام الاثنين والأربعاء والجمعة ، والحادية عشرة أيام الثلاثاء والخميس والسبت !!

أيقن الطبيب أنها تعبث به فقال :

– إني أذهب إلى المستشفى في هذه الأيام .

– عندما تذهب للغداء تكون الثانية عشرة والربع ، وفي السادسة والنصف تنصرف إلى بيتك .

– إنك ترسمين لحياتي صورة معتادة مملة ، ولكنني خالفت اليوم هذا الجدول .

– لقد كان هذا من حسن حظي؛ إذ لولاه لظللت ملقاة في الطريق في انتظار من يعنى بي . ثم أردفت وهي تبتسم : وربما لم نكن لنلتقي قط .

فأجاب وهو يقص أطراف الرباط :

– هذا حسن .

– أتعني الرباط أم الساق ؟

فتمتم الطبيب مشدوها :

– أيتها السيدة . . إنني . .

– ألا تستطيع أن تقطع برأي ؟

– إنني صنعت الرباط . . ولكني . . لم أصنع الساق . واغرقت في ضحكة طويلة مسرفة حتى رأت ما ارتسم على وجهه فكفت عن الضحك فجأة . وقال في هدوء :

– يلوح لي انك ترين في شخصي باعثا على المرح والابتسام .

فأجابت وهي تبتسم ابتسامة مشرقة مغرية :

– قليلا .. بطريقة ظريفة لا تسوءك . ولكن ماذا اصابني ؟ اتراني ماجنة مستهترة ؟ .

تذكر "تالبوت" ما ينبغي ان يكون بين الطبيب والمريض من التحفظ في الحديث فلم يجب .

وعادت الفتاة تقول :

– اتراني مستهترة ؟

– على النقيض .

– شكرا . هذا اظرف ما سمعت طوال حياتي .

ولم يملك "تالبوت" إلا ان يبتسم ، فقالت :

– يجب ان تكثر من الضحك هكذا فإنه يفيدك .

ومدت قدميها حتى استقرتا على الارض ولم تلبث ان صاحت :

– اوه ! إني أشعر بدوار . ايمكن ان يكون عندك قليل من الشراب ؟

– اجل، إني أحتفظ هنا بشيء من الشراب .. للاغراض الطبية ..

أخذت تلاحظه وهو يصب قطرات من الشراب في القدح قائلة :

– إنه الصنف الذي أوثره . لا إخالك تحب ان تشرب معي كاسا ؟.

اجاب في حزم وادب :

– اشكرك .

فقالت وهي تهز راسها :

– لعل عملي لا يروقك ؟

اجاب وهو يعطيها الكاس :

– ليس لدي اعتراض إذا كان من شان هذا ان يحسن حالة المريض .

– إن تحسن حالتي يتطلب شيئا أكثر من الكأس ولكنه مفيد على كل حال.

تجرعت الكأس مرة واحدة ثم قالت :

– ها ! إنني لأشعر أنني غدوت مخلوقا جديدا . كم الساعة الآن ؟

أجاب :

– إنها حوالي السابعة .

ولم يكد ينظر في ساعته حتى هتف كالمرتاع :

– السابعة ! لم أكن أظن أنني تأخرت إلى هذا الحد .

قالت في خبث :

– أرى أنك متزوج .

فضحك قائلا :

– أجل، ولديّ دعوة للعشاء حان موعدها . هل تظنين أنك تقوين على السير؟ جسنا .... سأوصلك إلى مسكنك .

وتأبط ساعدها الأيمن حتى لا يقع ثقل جسمها كله على الساق المصابة فاستطاعت بمعونته أن تقطع الشارع وتصعد السلم إلى مسكنها . ووقف عند الباب ليلقي عليها تعليماته الأخيرة فقال في لهجة سريعة :

– لا تحاولي العمل بل الزمي الراحة يوما أو يومين ، وإذا لم تشعري بتحسن غداً يجب أن تستدعيني .

وهم بلبس قبعته وهو في عجلة من أمره؛ إذ كان يعلم أن زوجته في انتظاره بالبيت ، ولكن "نورا برنتيس" لم تكن في مثل عجلته فقالت :

– أشكرك يا دكتور على الكأس .. بل على كل شيء .

أجاب وهو يهبط السلم :

– لا موجب للشكر .. سعدت مساء .

ولكنها استوقفته قائلة :

– دقيقة واحدة .. كم دينى لك ؟ .

– سابعث إليك بفاتورة الحساب .

– وهل تعرف اسمي؟

– "برنتيس" .. "نورا برنتيس" .

– لا تنس انك تحملتني كثيرا، ولعلك لم تلاحظ انني كنت في نشوة كنشوة الشارب الثمل ؟

– بل لاحظت .

وضحكت في دلال قائلة :

– لست ادري لتلك النشوة سببا ، ولكن شيئا فيك فتنني عن نفسي، على اني ساكون مؤدبة في المرة التالية ."

– هذا حسن .

رفع قبعته للمرة الثانية ثم اجتاز الشارع إلى حيث كانت سيارته في الانتظار، وللمرة الاولى لاحظ جمال ذلك المساء، فقد كانت السماء صافية وقد اضفى عليها الشفق حمرة الورد .

ثم ابتسم وهو يصعد إلى السيارة حين خطر له ان ابنته "بولين" تعجب بهذا الوصف .

- 3 -

كان يحلو لـ "تالبوت" ان يفكر في انه يضم بين جنبيه شخصيتين مستقلتين يندر ان تتدخل إحداهما في شؤون الاخرى . فالاولى شخصية الدكتور "تالبوت" الطبيب والجراح الذي يمارس عمله من الساعة التاسعة والنصف صباحا إلى السادسة والنصف من مساء كل يوم ، والاخرى شخصية "رتشارد تالبوت" الزوج الوفي والاب الحاني الشفيق فيما بقي من الساعات الاربع والعشرين . اجل إنه كان

يحدث أحيانا أن تتنحى إحدى الشخصيتين عن مكانها لصاحبتها وتتجاوز لها عن بعض حقها ، ولكن هذا لم يكن يحدث إلا نادرا جدا وفي ظروف طارئة ملحة لا حيلة له فيها .

ولقد كانت الصفحات السبع التي سودها بخطه الضيق الدقيق ووضعها تحت يده اليسرى وهو جالس إلى مكتبه خير شاهد على انه يعرف كيف يقصر وقت الطبيب على شؤون الطب دون سواها . وما كان يعرض له ذلك الحديث الذي يجيش به صدره ويود الإفضاء به إلى زوجته "لوسي" إلا حين تستعصي عليه بعض العبارات ما بين وقت وآخر ، ولكنه سرعان ما ينفض هذا الخاطر ويعود إلى الكتابة .

فرغ من فقرة في نهاية الصفحة الثامنة ثم نظر في ساعته وإذا بها السابعة إلاّ ربعا . هب واقفا بدافع غريزي ، ولكنه لم يلبث ان استقر على مقعده في تثاقل ولم يعد إلى الكتابة إلا بعد بضع دقائق .

طرق سمعه فجاة صوت عند باب الغرفة الخارجية يقول :

– "هل هنا أحد ؟" فاجفل واسرع ليرى من الطارق المنتاب ، وإذا "نورا برنتيس" تحييه هاتفة .

عجب "تالبوت" من نفسه؛ إذ لم يدهش لهذه المفاجاة كأنما كانا على موعد . واستطردت "نورا" قائلة :

– لقد كان النور مضاء والباب مفتوحا فدخلت .

ثم رات القلم في يده فاردفت :

– ارجو الا اكون قد قطعت عليك عملك ؟

أجاب مسرعا :

– لا . . لا بلا ريب .

حاول ان يقول شيئا آخر ليحول بينها وبين الانصراف لعله يتخفف مما يشعر به من الوحشة والضيق ولكن جهده ذهب عبثا ، وزاد من اضطرابه ان رآها هادئة

مطمئنة . وقالت :

– لقد أرسل إليّ صاحب الملهى الذي أعمل به بأنه في حاجة شديدة إليّ؛ إذ إن الملهى يزدحم ليلة الأحد ازدحاما شديدا ، فهل تظن أنني أستطيع الذهاب إلى عملي ؟ .

فقطب حاجبيه وأخذ يعبث بذقنه مفكرا ثم قال :

– حسنا . . بم تشعرين ؟ ألا تؤلمك ساقك ؟ .

– قليلا . . ولكن حالتها ليست بالسيئة .

وفكر ثانية ثم قال :

– أظن أنه لا ضير في ذلك، وإن كنت أنصح لك بعدم الإسراف في الرقص .

فرمقته مستغربة ، ثم ابتسمت ابتسامة بطيئة كأنما سنح لها خاطر لا يجوز لها التحدث عنه وقالت :

– إنني غير ملزمة بالرقص؛ إذ إنني مغنية ، وأنا فضلا عن ذلك حريصة محاذرة .

– نعم . . أظن أنه لا ضير عليك . في وسعك الذهاب إلى العمل .

كان يشعر بأنه من السخف أن يعيد عليها قوله ، ولكنه لم يستطع غير ذلك .

شكرته الفتاة ثم انثنت نحو الباب قائلة :

– سعدت مساء .

ووقف برنو إليها وقد بدا قدها رشيقا فاتنا وهي تجتاز الردهة ، وتألق شعرها اللامع الجميل تحت ضوء المصباح .

إنها ذاهبة إلى حيث الموسيقى الشجية وصليل أدوات المائدة وقرع الكؤوس وأصوات السامرين وضحكهم المرح ، وهاهوذا جامد في مكانه لا يحاول استبقاءها والاستمتاع بصحبتها .

ولكن ما الذي يستطيع أن يتحدث إليها عنه ؟ وما الذي يدعوها إلى الاستماع

إليه ؟ ولكن لعلها يسرها ان يتحدث إليها عن عملها .

وألفى نفسه بدون ان يشعر يركض في اثرها هاتفا :

- الآنسة "برنتيس" !

فاستدارت إليه متكلفة الدهشة :

- نعم ؟!

ولكنه الآن يشعر بالاضطراب، إذ وقفت تنتظر ما يقول وتمتم بلسان متعثر:

- إني .. إني .. انصح لك مع ذلك بالحرص .

- لقد قلت لي ذلك .

وابتسمت تلك الابتسامة الطيعة الماكرة التي تعلم انها تضاعف من اضطرابه وارتباكه ثم قالت :

- يلوح لي أنك تنجز عملا .

فابتهج بهذه العبارة ابتهاج الغريق الذي تعلق يده بخشبة طافية وقال :

- اجل ، إنني احاول ذلك . إني اكتب رسالة في امراض القلب .

- رسالة ؟ إني استطيع وضع مجلد باكمله .

وترددت لحظة ثم قالت :

- حسنا .. إلى الملتقى .

ولكنه استوقفها مرة اخرى قائلا :

- "برنتيس" .. اين قلت إنك تشتغلين ؟

- لم اقل شيئا ولكنه ملهى "ديناردو" في "فيشرمانزهوارث" . لم هذا السؤال ؟!

داخله سرور ساذج بالتظاهر بان سؤاله كان استجابة لرغبة عابرة فقال :

- لقد ظننت انني ربما ذهبت إلى هناك فيما بعد لتناول العشاء . هل الطعام الذي يقدمونه جيد ؟

اجابت في لهجة العابث الماكر :

- إذا كان الطعام هو ما تبتغي فمن الخير ان تبتعد ولكن الغناء حسن .. إذا كنت تريد الغناء !



كان "فيل ديماردو" طلق المحيا ، وسيم الوجه ، انيق الهندام، وكان مبدؤه الذي لا يكف عن ترديده على اصدقائه ان الاهتمام الشخصي وحسن الخدمة والإبداع فيما يعرض على المسرح تكفل دوام الإقبال والرواج . ولم يكن يوجه ذلك الاهتمام الشخصي إلا لمن يخلق به من رواد ملهاه؛ فقد كان يطمح إلى ان يجعله منتدى للطبقة العليا المختارة .

ولا ريب ان "تالبوت" كان ممن يستحقون تلك العناية؛ إذ ما كاد يلج الملهى حتى قصد إليه "ديماردو" محييا وقال:

- طاب مساؤك يا سيدي . هل انت وحدك أم تنتظر شخصا آخر ؟

- إني ...

وادرك "ديماردو" ما يريد ، وسرعان ما وجد له في ذلك المزدحم مائدة لشخصين يستطيع الجالس إليها ان يرى المسرح بوضوح . وما كاد الطبيب يأخذ مكانه حتى بدا على المسرح ثلاثة لشبان حسان الوجوه وانطلقوا يغنون باصوات رخيمة . وراح "تالبوت" يصغي إليهم وهو يجيل عينيه في انحاء المكان . كان الهواء راكدا تفوح فيه رائحة الطعام والشراب، والموائد تكاد تكون متلاصقة ، والمرء لا يستطيع تحريك يده بدون ان يحتك بالجالس إلى المائدة المجاورة له ، ولكن هذا كله لم يكن إلا ليزيد من شعور المرء بالانس والمرح .

وبدا لـ"تالبوت" ان بعض الحاضرين والحاضرات يتجاوزون ما تقضي به آداب اللياقة والاجتماع ، ولكن ليس هناك من يرى في ذلك بأسا سواه ، وحول بصره عن

اولئك الخلعاء الماجنين لعله يلمح "نورا" فقد تكون جالسة إلى إحدى الموائد حتى يحل دورها للظهور على المسرح .. أهذه هي ؟ وانقبضت أساريره عندما رأى أحد الخدم ينحني ليتلقى طلبات سيدة إلى يمينه خالها "نورا" وإذا به يسمع صوتا نسائيا يرتفع بالغناء ، وسرعان ما سكنت ضجة الحضور وارهفت اسماعهم واشرأبت اعناقهم نحو المسرح ، والتفت فإذا "نورا" تشدو بصوت خفيض حنون ، ورأى عينيها تنتقلان من مائدة إلى اخرى حتى استقرتا على مائدته وظلتا متجهتين إليه لحظة قبل ان تتحولا إلى غيره ، وابتسمت ابتسامة خيل إليه انها تختصه بها دون سواه من الحضور ، فنظر إلى من يحيطون به ورآهم جميعا شاخصين إلى المسرح لا يرون في تلك الابتسامة ما خاله من المعاني والدلالات .. وداخله شعور بالخيبة والأسف لا يدري له سببا .

دلفت "نورا" من المسرح إلى الصالة وهي مسترسلة في غنائها، واخذت تقف بكل مائدة وتنحني للجالس إليها منشدة مقطوعة من اغنيتها تناسب المقام، ثم تنتقل إلى مائدة أخرى وهكذا . ولا ريب ان اولئك سروا كثيرا بتلك الدعابة وإن لم يخف على "تالبوت" ما ينطوي تحتها من العبث والدلال .

انتهت الاغنية اخيرا ، وقطع ضجة الاستحسان عزف للموسيقى معلنة ظهور منظر جديد على المسرح ، فقصدت إليه "نورا" قائلة :

– اراك قد جئت ..

فتلعثم "تالبوت" واجاب كأنه يعتذر :

– إنني لم استطع مواصلة العمل .

ومضت بضع ثوان قبل ان يقدم إليها مقعدا .. وقالت :

– الم توفق إلى مداواة مرض القلوب ؟ إنني اشعر بالسقم في قلبي. استغرقت في تاملاتها برهة ، ثم اضطجعت في مقعدها وحدقت إليه قائلة :

– لا اكتمك يا دكتور اني لا اكاد اعرف ما الذي يحدو برجل متزوج تجري

حياته على نظام ثابت من المواعيد على ارتياد هذا المكان ؟ إنك الآن تخالف نظام مواعيدك . .

– لا . . لا . . فليس لديّ من عمل عاجل ، وزوجتي الآن غائبة عن المدينة .

قالت ساخرة :

– ها . . «إن الزوجة غائبة فلماذا لا أذهب للتلهي بتلك المغنية التي لا يعنيني اسمها ؟» أليس هذا ما دار بخلدك ؟

أجاب "تالبوت" وقد نال منه الاضطراب :

– حسنا . . لقد بدا لي . .

ولكنها قاطعته قائلة في عنف :

– إني أعلم ما بدا لك . . ولكن من الخير أن أصارحك بأني – وإن لم أكن ذات قدر وخطر – لست – على الرغم من ذلك – من سقط المتاع .

حار المسكين في فهم ما ترمي إليه وإدراك الصلة بين موقفها الشاذ وما قال وفعل ، ولكنه علم من لهجتها ونبرات صوتها أنها ثائرة مهتاجة . . وقال في رزانة :

– أنت مخطئة يا آنسة "برنتيس" . . فما جئت إلى هنا إلا لاعتقادي بأننا صديقان . فهتفت وهي تلحق به إذ هم بالانصراف :

– انتظر لحظة يا دكتور . . لا تذهب . .

فتوقف عن السير واستدار حتى واجهها ، وظلا لحظة صامتين لا ينطقان بحرف ثم انفرجت أساريرهما وتجلت في وجهيهما دلائل الرضا والارتياح .



استنشقت طويلا من ذلك الهواء الذي تفوح فيه رائحة الصنوبر، ثم التفتت إلى "تالبوت" قائلة :

– هذا هو الهواء الذي طالما تمنيت استنشاقه .

رنا إليها " تالبوت " وقد عبث النسيم بشعرها الناعم وسرت في وجنتيها حمرة الورد فلم يدر كيف داخله الشك في انها ستهنأ بزيارة هذا الكوخ .. ايهما " نورا برنتيس " الحقيقية ؟ هي هذه الفتاة الغريرة التي تتمايل اعطافها مرحا ، أم تلك المغنية المحترفة بذلك الملهى المتواضع ؟ لقد احس – حتى في الليلة الماضية – ان تحت المظهر العابث المستهتر فؤادا عامرا بالعواطف الإنسانية الصادقة ، فهل اخطأ في ذلك ام اصاب ؟

ولكن لماذا يجهد نفسه بالتفكير في هذا ؟ حسبهما ان ينعما معا بهذا اليوم السعيد .

فتح الباب وتنحى جانبا لكي تدخل وهو يقول :

– لننتظر بداخل الكوخ قليلا . إني لم احضر إلى هنا منذ زمن طويل ، وما ادري ما فعل الترك والإهمال .

وقفت " نورا " تجيل عينيها في الغرفة صامتة ، وقد كسا الغبار كل ما بها واضفى عليها دثارا رماديا كريه المنظر ، وقد نسج العنكبوت خيوطه على رفوف الكتب . واخذ " تالبوت " يتبع نظراتها قلقا آسفا ، فقد كان ينبغي أن يتوقع هذه الحال ويعمل على تنظيف الكوخ قبل المجيء بها إليه . وقال كأنه يعتذر عن هذا التقصير:

– ارى ان هذا المنظر ليس مما يبعث على السرور والرضا .

فقالت وهي تتنقل بين حجرات الكوخ مستطلعة :

– وكيف تدعه يصير إلى مثل هذه الحال ؟

– ليس ثمة من يعنى به سواي .

وراعها ما يتمثل في نبرات صوته من هم والم حبيس فالتفتت نحوه ثم اشارت إلى بيان صغير قبالة النافذة وسألته :

– من يعزف عليه ؟

– إني أعزف عليه أحيانا ، أو كنت افعل ذلك على الاقل . إن هذا الكوخ يكاد يكون الشيء الوحيد الذي فكرت فيه من تلقاء نفسي بدون ان يكون لي في رأيي شريك . انظري إليه !! غبار عنكبوت !

ومضى يحدثها في حزن وألم كيف انصب عليه اللوم والتعنيف من كل جانب؛ فلقد جاوز الصواب في ابتياع هذا الكوخ الجبلي الذي يبعد عن المدينة كثيرا ، ولا يصلح لصغره لإقامة المآدب والحفلات، وما فائدة مكان لا يستطيع المرء ان يدعو إليه معارفه واصدقاءه ؟

بهذه العبارة وامثالها كانت زوجته تجيب إلحاحه عليها في زيارة الكوخ وهي ترمقه بنظرات تجمع بين السخرية والرثاء .

فرغ "تالبوت" من شكايته ثم قال في هدوء :

– لعله من الخير ان تنصرف .

– اتريد مبارحة الكوخ الآن حقا ؟ إنه ليس بالرديء وفي وسعنا تنظيفه في وقت قصير .

– أتعنين انك تريدين المكث هنا ؟

– بلا ريب ، وأكبر ظني انني لم انس بعد كيف امسك بالمكنسة . هيا لا تقف هكذا مكتوف اليدين .. افتح النوافذ .

وأكبا على العمل، و"تالبوت" يأبى إلا ان يعاونها حتى فيما لا يصلح للقيام به غير شخص واحد . وبدت المهمة سهلة يسيرة وكان يراها قبل ذلك عسيرة شاقة وحاولت الا تنظر إليه حين أضاء المصابيح وجلس إلى البيان ، كما حاولت ان تتجاهل وجوده عندما رفع الغطاء ومر باصابعه على المفاتيح، ومالت على البساط بجانب الموقد المشتعل وقد حولت عنه وجهها . وبدأ يعزف فتسللت النغمات إلى اعماقها وهزت مشاعرها هزا عنيفا حتى بات من العسير عليها ان تمضي في صمتها فقالت :

- إنه لملحن ظريف !

- إنه لـ "شوبان" .

- أجل .. أعرف ذلك .

- ما الذي يحملك على الابتسام ؟

فاستدارت إليه مستغربة وقالت :

- وكيف عرفت انني كنت ابتسم ؟

ولكنه صمت هنيهة ثم قال في بطء :

- أظن أن لك كثيرا من الأصدقاء ؟

ولو كان قريبا منها لحدث يدها تمس يده ، ولأدت تلك اللمسة من المعاني ما لا تؤديه الكلمات؛ فلقد كانت تتمنى أن يعرف أن عواطفها نحوه تختلف كل الاختلاف عما تشعر به نحو كل من تعرف ، وإن آثرت الا تجاهره بذلك في قول واضح صريح؛ حتى لا تجشمه مرارة الأسف على جوره في الحكم عليها . وأجابته :

- أصدقاء ؟ إني لا أحب أن أدعوهم كذلك ، فما أكتمك أن أكثرهم لا يبتغون سوى الأنس والتسلية .

- ولكن صاحب الملهى .. "دينياردو" ؟ إني لأظنه يميل إليك .

قالت ساهمة :

- أجل .. هكذا يقول لي ، إنه ذاهب إلى "نيويورك" لافتتاح ملهى جديد ويريد أن أصحبه .

إن ميل "دينياردو" إليها لم يخف عليه إذن مع أنه لم يقف عند مائدتهما سوى دقيقة أو دقيقتين !

تلا ذلك برهة صمت ثم سألها :

- وهل تنوين الذهاب ؟

- لا أظن ذلك؛ إنه ليس بالرجل الذي انشده .

افلتت هذه الكلمات من بين شفتيها قبل ان تشعر بانها تتكلم . إن "فيل ديناردو" ينتظر رايها في هذا الشان منذ اكثر من اسبوعين؛ إذ هي تعقد عزمها بدون روية ولا تفكير . وراحت تتامل ضوء نار الموقد وهو يتراقص على محياه . وسالها :

– وما الذي تنشدين يا "نورا" ؟

– لا ادري . ولقد كنت اظن فيما مضى انني اعرف ما اريد ، فاقبلت إلى هنا من بلدة صغيرة في الغرب راجية ان التقي مع من يرسلني إلى "نيويورك" او "هوليوود" ولكنها كانت – كما تعلم – اضغاث احلام وقد اعرضت عنها .

حول وجهه عن الموقد واخذ يتفرس فيها قائلا :

– لماذا ؟

اجابت :

– إن الاحلام لا تلبث ان تتلاشى إذا صدمتك حقائق الحياة .

فهتف في الم:

– "نورا" !

– لا باس عليّ . إنني احب حياتي الراهنة ويروقني ان اكون "نورا برنتيس" التي تغني ست مقطوعات كل ليلة وتحتسي شيئا من الشراب احيانا مع احد الزبائن . إنني قانعة بما انا فيه ولا اجد سببا للتبرم والشكوى .

– إنك ظريفة جدا يا "نورا" . . بل انت اظرف مما تظنين .

– إنه لظريف منك ان تقول هذا ، فما مدحني قبلك احد باكثر مما فيّ ، وإنني احب هذا الثناء .

– لعلك تعلمين – يا "نورا" – انك عندما جئت إلى عيادتي منذ يومين كنت قاسية جدا مسرفة في العبث والاعتداد بنفسك .

– كان هذا ايضا رايي فيك منذ يومين؛ إذ لحت لي مسرفا في الجد والوقار .

وشعرت برعدة تتمشى في جسدها حين رأته ينهض عن مقعده أمام البيان ويسير نحو الموقد . فلما وقف بجانبها لم يكن صوته يتجاوز الهمس وهو يقول:

– منذ يومين كان كل منا غريبا عن الآخر .

وعند ذلك فوجئت بوخزة شديدة من الألم بساعدها الذي تتكئ عليه فهبت واقفة وقالت :

– يحسن بنا ان نذهب .

فسألها :

– ماذا حدث ؟

امسك بكتفيها يحاول ان يقرأ الجواب على وجهها .

فاجابت وهي تحول عنه وجهها وتتكلف الخشونة :

– لا شيء . . لا شيء . . إننا أنفقنا يوما كله هنا ولكل شيء نهاية .

فسقطت ذراعاه إلى جانبيه وقال :

– هل فعلت ما يجرح شعورك ؟

اجابت :

– لا شيء من ذلك .

كان من أشق الأمور عليها ان تحتمل وخز ضميرها وقد بدأت تتبين ما يعتلج في نفسيهما ويتعمق في فؤاديهما . إنها لتشعر بأن من واجبها ان تحول بين هذه العاطفة الوليدة والنمو والتمكن ، وإنها لخليقة بكل ما قد يصيبها من العذاب والألم ولكنها لا تستطيع ان تعرضه للتعاسة والشقاء وهو غافل عما يتربص به .

وحاولت ان تكون رقيقة بدون ان تذهب في ذلك إلى ابعد مما ينبغي فقالت :

– إنك اول رجل يحفل بشعوري وكرامتي .

– ماذا بك إذن ؟ لقد كنت منذ لحظة سعيدة قريرة العين .

– اجل . . كنت كذلك . فلقد نسيت ان في الحياة اياما كيومنا هذا ، ولقد

وددت الا ينتهي ابدا .

فاخذ يذرع الحجرة مطرقا براسه وهو يقول :

لا افهم ماذا عراك .

- انظر ، لقد بدات هذا رغبة في اللهو والدعابة ، ولكن الامر لم يعد لهوا ولا دعابة !!

وتناولت معطفها من فوق احد المقاعد وراحت تلبسه قائلة :

- إنك الرجل الذي يمكن ان يفتنني عن نفسي ، وهذا ما لا ارغب فيه .

- "نورا" !

- لا ، فما الفائدة ؟ ما الذي اخرج به من هذه المغامرة إذا ما ذهبت النشوة وانقضى الامر بيننا ؟ لقد قاسيت في حياتي كثيرا من الآلام ولا قبل لي بالمزيد منها .. فلنغادر هذا المكان بربك .

اعاد "تالبوت" غطاء البيان واطفا المصابيح ثم تناول قبعته ومعطفه وتبعها إلى الباب، وكانت اشعة القمر الباهتة تراقص الأشباح على البيان والموقد ، ومد يده دون ان يتكلم وضغط يدها فكان في هذه الحركة الخفيفة ما ضعضع إرادة "نورا" وحطم عزمها .

همس :

- "نورا" !

- لا تقل شيئا .

- 4 -

كان يصعد السلم المفضي إلى مسكنها واجفا مضطربا لا يعلم كيف تكون تحيتها له : أتلقاه بالدهشة والعجب ، ام بالسرور والاغتباط ؟ أكبر الظن انها ستلقاه في شيء من التحفظ والانكماش ، فإن الصبح يهدئ دائما من ثورة العاطفة

وحدتها ، ويفرغ على النفس السكينة والاستقرار بعد القلق والاضطراب ، ولكن الدقائق الثماني عشرة التي سيقضيها معها كفيلة - على كل حال - بإرواء غلته بقية النهار ، ولعله يستطيع أن يظفر بدقائق أخرى عندما ينتهي موعد العيادة .

ضغط زر الجرس وأرهف سمعه منصتا إلى وقع قدميها أو حفيف ثوبها فلم يسمع شيئا .. وضغطه مرة أخرى نحو نصف دقيقة .

أتراها خرجت ؟ لعلها توقعت أن يعرج عليها فتعمدت تجنبه إذ هالها إذعانها له في الليلة الماضية ، وإنه ليفكر فيما يفعل إذ سمع وقع خطواتها .

ولما فتحت الباب لم ير في وجهها شيئا مما توقعه ، فلا دهشة ولا عجب ، ولا تحفظ ولا انكماش بل كان في محياها شيء أدنى إلى القلق والانزعاج . وابتدرته قائلة :

- أمريض أنت أيها الحبيب ؟ ادخل سريعا .. هنا ..

ضحك وهو يضمها بين ذراعيه هاتفا :

- "نورا" ! عزيزتي "نورا" ! ما أشد ما أثقلتني من الهواجس والوساوس .

وأكب عليها يغمرها بقبلاته في جد وهيام .

وكان سبب تأخرها بعيدا أشد البعد عما طاف برأسه من المخاوف والأوهام، إذ كانت مستغرقة في النوم فلم تسمع رنين الجرس .



تأخر "تالبوت" خمس دقائق عندما وصل إلى عيادته في الصباح ، وخمسا وأربعين عندما عاد إلى بيته في المساء .

وكانت "لوسي" قد أخرت العشاء حتى يعود ، فسألته عن سبب هذا التأخر الطويل ولكنها لم تطق صبرا حتى تسمع جوابه ، بل اندفعت في حديث طويل عن أمها .

عجب "تالبوت" إذ انس من نفسه سرورا لا عهد له بمثله لعودة "بوني" و"جريج" بل و"لوسي" ايضا ، وخيل إليه انهم افترقوا عنه دهرا كاملا، ولكنه شعر كذلك بشيء يباعد ما بينه وبينهم حتى لكانهم غير اولئك الذين ودعهم يوم الجمعة . وهكذا اقبل عليهم يصغي إلى كل ما يقولون في اهتمام ، واخذ يغريهم بالمضي كلما فتر الحديث حتى آووا إلى مضاجعهم؛ فلقد كان يحس في قرارة نفسه ان هذا الحديث يدنيهم منه ويعوضهم عما فرط في حقهم كاب وزوج . وكان راغبا اشد الرغبة في مواصلة الحديث مع "لوسي" بعد انصراف ولديه ولكنها استاذنت في الذهاب لمراجعة حساباتها ، فاكب على رسالته في امراض القلب وهو يشعر بشيء من الأسف .

وظل بقية ذلك الاسبوع يغادر بيته مبكرا ، ويعود إليه متاخرا ، وألح في إقناع "لوسي" بإعفائه من إجابة ثلاث دعوات للعشاء . ولكن شغفه بـ"نورا" كان لا يفتأ مع ذلك يتضرم ويحتدم ، حتى بات من العسير عليه أن يفترق عنها لحظة .

وفي الأسبوع التالي اتفق مع "نورا" على ان يتناولا الغداء معا كل يوم ، ثم اخذ يحملها بسيارته في بعض الامسيات إلى ملهى "ديناردو" ، وما لبث ذلك ان اصبح عادة منتظمة مستمرة .

اما في العيادة فقد وجد سكرتيره نفسه مضطرا - في كثير من الاحيان - إلى الاعتذار للمرضى ، وإحالة الحالات العاجلة إلى زميله الدكتور "جويل موريان" .

وان هوى "نورا" على بصيرته وفتنه عن نفسه فلم يعد يطيق مفارقتها لحظة ، وغدت أعذاره واهية متهافتة إذا تمحل شيئا من الاسباب والمعاذير .. على ان العاشقين لم يجدا في ذلك شيئا من برد الراحة والاطمئنان ، فما كانا يجهلان ان هذه الحال لابد ان تفضي بهما إلى ما لا تحمد عاقبته .

وفي صبيحة عيد ميلاد "بوني" ، لم يخف على السيدة تالبوت" وولدها "جريج" ما ارتسم على وجه الفتاة من سمات الخيبة والالم عندما نظرت إلى مقعد

ابيها امام المائدة فرآته خاليا .. لقد تعود في العهد الاخير ان يتأخر في النوم ، ولكن كان خليقا به ان يقدر لهذا اليوم حقه دون بقية الايام .

تبادلوا التحية في مرح متكلف وبشر مغتصب ، واخذ "جريج" يداعب شقيقته للتسرية عنها ، وانثنت الفتاة إلى امها قائلة :

– الم يقل ابي شيئا عن الاحتفال بعيد ميلادي الليلة ؟ اتظنين انه ينسى؟

– محال .. إنك تعلمين انه لا ينسى شيئا كهذا .

وادركت انها اخفقت في إقناع ابنتها فتحولت إلى "جريج" قائلة :

– اظن انه ينبغي ان نوقظه الآن .

وبعد هنيهة سمعنا صوت "جريج" وهو ينادي اباه محاولا إيقاظه ، ثم دمدمة خافتة ثم وقع خطى "تالبوت" الثقيلة وصوته المرتفع الساخط وهو يقول : "الا يوقظني احد على كسرة من بالبيت ؟ لا تقف هناك ! .. ثم هدأ الصوت قليلا وقال: "إني آسف يا ولدي .. سانزل سريعا ."

عاد "جريج" عابسا كاسف البال ، ففرغت "بوني" من فطورها واسرعت إلى ارتداء معطفها ثم سارت نحو الباب تريد الخروج ، ولكن "تالبوت" اقبل في تلك اللحظة وعيناه منتفختان من النوم ، وقال :

– اسعدت صباحا يا "بوني" .

وقفت الفتاة متوقعة ان يذهب إليها ليحييها التحية اللائقة بذلك اليوم السعيد ولكنه اتجه بدلا من ذلك إلى زوجته قائلا :

– اسعدت صباحا يا "لوسي" .

فاندفعت الفتاة خارجة من البيت بدون أن تنبس بحرف .

وتنهدت السيدة "تالبوت" تنهدا طويلا وهي تعد له طعام الفطور .

وقطعت عليه استغراقه قائلة :

– "ريتشارد" .. إني اعلم ما يشغلك من المشاغل والاعمال ، ولكن هل لك ان

تجيء الليلة مبكرا ؟

- نعم .. بقدر ما استطيع .

وغاظها ذلك فقالت :

- ايعني هذا بعد منتصف الليل كعادتك ؟

وهم بجواب لاذع ولكنه تمالك نفسه في آخر لحظة . إنها لتعود إلى نظامها البغيض ، وقد كان يحتمل منها هذا العسف فيما مضى لو انها عنيت به حقا ولكنها لم تعن به قط عندما كانت تحدي العناية، اما الآن فقد انقضى الامر وبات تدارك ما فات مستحيلا . ولم يجد غضاضة في الكذب فقال :

- لا حيلة لي في ذلك إذا اضطرتني إليه اعمالي .

قالت في جفاء :

- حاول الليلة فإنها مهمة جدا .

فانفجر غاضبا وقال :

- إن كل ما ترين مهم .. الم يخطر لك قط ان اعمالي مهمة كذلك ؟

- بدون شك يا "رتشارد" . إني لم اقل ذلك إلا لان الليلة هي ...

فالقى بسكينه وشوكته على المائدة قائلا :

- إني سئمت قولك لي متى ينبغي أن استيقظ ومتى انام ، ومتى اذهب إلى عملي ومتى اعود !

- ليس ثمة ما يستوجب كل هذا يا "رتشارد" .

لم يزده هدوءها إلا حدة وانفعالا فصاح بها :

- إن لي عشرين عاما آخذ نفسي بنظام دقيق لا يتغير ولا يتبدل ، فهل سالت نفسك مرة : الا يثقل عليّ ان اسجل حضوري هنا في الساعة السابعة تماما كل مساء لا اتقدم عنها ولا اتاخر ؟ هل عنيت لحظة واحدة بي أو بعملي او بما هو بين جوانحي ؟

فراحت تحدجه بنظرها لحظة وهي صامتة ثم قالت في تمهل :

- لقد بدأت الآن أسأل نفسي عما يختلج بين جوانحك .

- ماذا تعنين بذلك ؟ - لا شيء .. غير أني لست بالغبية كل الغباء ! إن هذه الضرورة المفاجئة التي تضطرك إلى العمل الكثير حتى الساعة الرابعة صباحا تبدو لي عجيبة غاية العجب. إن أهل "سان فرانسيسكو" لا يمكن أن يكونوا جميعا فريسة للأمراض والأسقام !

- إني ... ثم نظر في ساعته وقال مسرعا :

- حسنا .. فلنرجئ هذا الحديث إلى وقت آخر .

ولأول مرة منذ عشرين سنة خرج بدون أن يودعها . كان الدكتور "موريان" يضع بضعة ألواح فوتوغرافية في ظرف أسمر عندما وصل "تالبوت" إلى العيادة وأخذ ينظر إلى الأوراق المبعثرة على مكتبه في غير نظام بدون أن يحاول إخفاء استيائه . لا ريب أن "جويل" حضر مبكرا ، ولعله أراد استلفاته إلى تأخره بهذه الطريقة بدلا من أن يصارحه برأيه ولكن ماذا على "تالبوت" إذا تأخر قليلا ؟

قال "جويل" وهو يومئ إلى الغرفة الداخلية :

- إن "بيلي" هناك وكان ينبغي فحصه بأشعة "إكس" في الساعة التاسعة .

أجاب "تالبوت" في ضجر :

- أعرف ذلك .. لم أنس .

- ولم يكن في وسعه الانتظار فقمت بفحصه .

فمد "تالبوت" يده نحو الظرف قائلا :

- حسنا .. أرني النتيجة .

فأجاب "جويل" وهو يعطيه الظرف :

- إن "بيلي" يتشوق إلى التفاهم معك؛ لأنه في أشد الاضطراب .

فقال "تالبوت" وهو يعرض اللوح للضوء :

- وماذا اقول له ؟ إنه لن يعيش ستة اشهر اخرى .

بهت "تالبوت" حين سمع صوت المريض من خلفه فاستدار نحوه ، ولكنه لم ير في وجهه ما يدل على انه سمع كلماته او لم يسمعها ، وقال له متلعثما :

- ارى - يا سيد "بيلي" - انك لقيت كثيرا من العناية .

فاشار "بيلي" إلى الواح التصوير التي بيده وقال :

- نعم .. شكرا لك .. ما رايك ؟

- لم يتسع الوقت لفحصها ويمكنك الحضور فيما بعد .

غادر المريض الغرفة في خطى متثاقلة فهتف به "جويل" :

- يجب ان تظل متصلا بنا .

وانثنى إلى زميله قائلا :

- لقد طلب المستشفى يا "رتشارد" ان يعرف هل يمكن الاتصال بك؛ لانك لم تكن بالمنزل .

- اجل .. اعرف ذلك .. لقد دعيت إلى حالة طارئة .

- إنك دعيت إلى كثير من الحالات الطارئة في الايام الاخيرة يا "رتشارد" ، وما اعني بذلك نقدك والاعتراض على تصرفاتك .

فقاطعه "تالبوت" قائلا :

- حسنا .. هل من شيء آخر ؟

فتنهد "جويل" آسفا وقال وهو يغادر الغرفة :

- لديَّ عدة زيارات ولست بعائد اليوم .. إلى الملتقى هذا المساء .

اجاب "تالبوت" في شرود :

- إلى الملتقى .

ولم يتنبه إلى كلمات زميله إلا بعد انصرافه .. هذا المساء ؟ اين يلقاه الليلة ؟ اتراه يعلم باختلافه إلى ملهى "دينياردو" ؟ ام تراه يعني ما وصفتها "لوسي" بانها

"مهمة جدا" ؟

إن "موريان" سيكون هناك ايضا !

وكف عن التفكير في ذلك وقرع الجرس ليأتوه بالمريض التالي .



أدرك "تالبوت" منذ ان دخل مسكن "نورا" ما طرا عليها وعليه من التبدل والتغير؛ فلمس في صوتها حرارة الشوق وما الف ، ولمس في حركاتها عندما تقدمت لاستقباله ورفعت إليه ثغرها ليقبلها ما عهد فيها من تضرم الصبابة والهيام .

واعوزه الكلام فاخرج علبة سجائره ، وقدمها إليها ولكنها نحتها بإشارة من يدها، وقالت :

– هل تعلم زوجتك بامرنا يا "رتشارد" ؟

فوجئ بهذا السؤال فكاد يمسك انفاسه ثم قال :

– لا .. وما ادري ماذا اقول لها إن اكتشفت هذه الصلة . لقد كان التفكير في ذلك شغلي الشاغل طوال اليوم فلم اكد افرغ لحظة لعملي .

– ولماذا تقول لي ذلك يا "رتشارد" ؟

فنظر إليها، ثم اخذ يقلب بصره في الغرفة في عجز واستخذاء ثم قال :

– حسنا .. قد لا استطيع الإكثار من لقائك كما كنت افعل .

– الا ترى ان من الخير ان تنقطع عن لقائي انقطاعا تاما ؟

وعلم أنه اخطا فيما قال واساء التعبير، وكان خليقا به ان يتلطف بها ويختار طريقة لا تؤلمها هذا الالم العميق . وتمنى لو لانت قليلا وخففت من غضبها؛ حتى يستطيع ان يطوقها بذراعيه مواسيا . وقال اخيرا :

– انقطع عن لقائك ؟ لا .. إن هذا لن يكون . لن انقطع عنك إلا ريثما اهتدي

إلى وسيلة من الوسائل .

- وهذا يعني انك ستراني عندما لا يكون في ذلك حرج عليك .

فقال مستعطفا :

- لم اقل ذلك .

- هذا هو ما تريد .

- بربك يا "نورا" .. إن هذا فوق احتمالي . الا تفهمين ؟

- إني افهم ، ولكن الامر يعنيني كما يعنيك تماما . لقد سئمت التسلل حول الزوايا والاركان واختلاق الحجج والمعاذير ، وانا مثلك . اتعرف كيف مرت عليّ الاشهر الاخيرة ؟ .

- "نورا" .. إنني اقدر ..:

- لقد كان هذا حسنا عندما كنا سعيدين ، ولكننا الآن لسنا كذلك .

- لست اعرف ماذا اقول او افعل .

- لقد اخبرتك ذات مرة انه لن يكون عليك بأس إذا آن لك ان تتخلى عني وقد حدث ما توقعت . إن لك يا "رتشارد" زوجة واولادا وحياة لا تصلني بها صلة فاذهب... اذهب إلى بيتك ودعني وحدي .

وتذكر ما كان بينه وبينها ليلة الكوخ، لقد كانت إذ ذاك من الدعة واللين بقدر ما فيها الآن من الصلابة والعزم .

ولكنه يعلم ان من تحت هذه الاقوال عزيمة لا تلبث ان تنهار كما انهارت في تلك الليلة .

سألها :

- وانت ؟

لقد كانت على اتم الاهبة لمجابهة اعتراضاته والحاحه ، ولكنها لم تتوقع هذا السؤال وهي حقيقة لم تغب عنه . واشاحت عنه بوجهها فايقن ان الفراق بينه

وبينها محال ، وسوف يبعديان إلى سعادة لم يحلما بإمكان تحقيقها . وهيهات ان يعرضا عن هذه السعادة طوعا واختيارا .

وقالت تطمئن نفسها :

- ساكون على ما يرام؛ فإن "فيل ديناردو" ابرق إليّ اليوم وقد ارحل إلى "نيويورك" .

وهتف يقول في حدة :

- كلا .. لن ادعك تفعلين ذلك . سأتحدث إلى "لوسي" وسأطلب إليها الاتفاق على الطلاق .

- الطلاق ؟

- اجل . إن السبيل الذي تسير فيه الآن مجحف بنا كلينا ، وسنرحل إلى مكان آخر حيث نشهد لنا حياة جديدة .

فاخذت تتفرس في وجهه لعلها تلمح بادرة من التردد والإحجام وهي تخشى الامل والخيبة على السواء ، وقالت في صوت جامد :

- أواثق انت أن هذا ما ترغب فيه ؟

- نعم .. سأخبرها الليلة وساحضر إليك في بكرة الصباح غدا .

وسرعان ما اندفعت إلى جانبه والصقت وجهه بوجهها وراحت تقبله بعنف وحرارة .

وقالت في صوت عذب رقيق :

- "رتشارد" ! لكم احبك !



نجحت الحفلة إلى ابعد حدود النجاح من وجهة نظر "بولي" واترابها على الاقل؛ فقد حفلت الموائد بما لذ وطاب من الوان الطعام وصنوف الحلوى والمرطبات ،

ورفعت السجاجيد عن ارض القاعة اللامعة ليرقص عليها الراقصون ، وصدحت الموسيقى باعذب انغامها واشجى الحانها . وضاعف من ابتهاج الشباب ان انتحى الكبار جانبا فخلا لهم الجو يلهون كما شاءوا ويعبثون . اما ذلك الطيب الذي يدعونه العم "جوبل" فقد كان يلهو معهم ويعبث ويعدونه واحدا منهم وإن كان قد جاوز الثلاثين .

ولم يعجب اولئك الشباب إلا لان "بوني" كانت تسأل بين الفينة والفينة لتسأل : الم يعد ابوها ؟ فلماذا تشغل نفسها به وهم يدونه على ما يرام لا ينقصهم شيء من اسباب اللذة والسرور ؟

كانت "لوسي" تتلطف باولئك الشباب وتمد لهم في حبال اللهو والمرح ، كما كانت تؤكد لـ"بوني" ان اباها لا يلبث ان ياتي ، ولم يساورها شيء من القلق الذي يستبد بابنتها إلا بعد ان مضت ساعتان كاملتان .

انتحى بها "موريان" جانبا يبث في نفسها الهدوء والاطمئنان فقالت :

– ولكني لا افهم ابن يمكن أن يكون . ماذا به يا "جوبل" ؟ إنه يابى ان يصارحني بشيء .

نبسط "جوبل" يديه قائلا :

– إنه يابى مصارحتي بشيء كذلك . ووضع ذراعه في ذراعها وقال :

– ولكن مهما يكن من امره يا "لوسي" فإني انصح لك الا تتشددي في معاملته كزوج .

واردف بلسان متلعثم :

– إن الرجال المتزوجين كثيرا ما يتهجون سبيل .. سبيل .. الرجال غير المتزوجين.

وكف عن الكلام ، فقالت تستحثه :

– ثم ماذا ؟

اجاب :

- خذي بنصيحتي واحمليه على اخذ فترة من الراحة والاستجمام ، وارحلي معه في شهر عسل جديد ، ولكن حذار ان تتلكئي في ذلك .

ولكن "لوسي" لم تكن مصغية إليه، إذ سارت نحو الباب وهي تهتف في انفعال :

- هاهوذا ! وصاحت بالخادمة :

- اعدي الكعكة الكبيرة فقد جاء !

ثم تعلقت بذراعه قائلة :

- أواه يا "رتشارد" ! إنني لفي اشد السرور بمجيئك .

لم يكن "تالبوت" يتوقع هذا الاستقبال ، فلو تلقته باللوم والعنف لكان اقل حيرة واضطرابا . ورأى الاضواء تتألق في كل مكان فقال :

- ما هذا ؟ ومن هؤلاء كلهم ؟

- لقد حاولت ان اخبرك في الصباح ، إنه عيد ميلاد "بوني" .

فقال يردد عبارتها متلعثما :

- عيد ميلاد "بوني" ؟

- اجل .. ولقد خشيت ان تكون قد نسيت .

لم يكن في صوتها شيء من رنة التشفي او الفوز .. ليس فيه غير الخيبة المرة والألم . اليوم عيد ميلاد "بوني" ؟ ويحه ! كيف استطاع ان ينسى ذلك ؟

وقال مضطربا :

- وماذا أنا صانع ؟ إني لم احضر لها هدية .

فمدت إليه "لوسي" ربطة صغيرة قائلة :

- لقد احتطت لذلك عندما لم اسمع عنك خبرا بعد الظهر فابتعت هدية .. تقدمها إليها فإنها ستعجبها وتروقها .

استعصى عليه القول وعصاه لسانه .. إنها لتفكر في كل شيء، وتتقذ كل

موقف ، وهو مع ذلك يوشك ان يفضي إليها بالحقيقة الهائلة المروعة عن امره مع "نورا" !

وقال :

- "لوسي" .. إنني ...

ولكنها لم تشأ الإصغاء إليه وتجشيمه الم الاعتذار ، فقالت وهي تدفعه إلى الباب :

- من الخير ان تدخل الآن .. تصرف كان لم يحدث شيء . هيا .

وزاد غصته وألمه ان كانت "يوني" في انتظاره عند باب القاعة ، فطوقت عنقه بساعديها وقد وقف "جريج" خلفها .. وجهد "تالبوت" في ان يسمو إلى مثل بشاشتهما وجذلهما ، فقال وهو يوزع بينهما ابتساماته :

- حسنا .. حسنا .. كيف حال فتاتي التي نحتفل بعيدها ؟

فهتفت "يوني" وقد تهللت ابتهاجا :

- هل ذكرت ذلك يا ابي ؟

قال :

- ذكرت ؟!

الفى هذه الكلمة كان النسيان ابعد شيء عن الإمكان وهو ينقم من نفسه هذا الكذب والخداع . ولم يسعه إلا ان يسترسل في الكذب فمضى قائلا :

- ليس عليك إلا ان تبحثي في هذا الجيب .

فصاحت وهي تخرج الربطة الصغيرة من جيبه وتفتحها قائلة :

- اهو ما كنت اتوقع ؟

- اظنه كذلك .

واخيرا مزقت الغلاف وفتحت العلبة ووضعت الساعة الانيقة في معصمها هاتفة :

- إنها لكذلك ! ابي .. إنها جميلة .. جميلة !

وهتفت بامها لكي تاتي لرؤيتها :

– اماه ! إنه لم يتس ! اليست رائعة ؟

شاطرت "لوسي" ابنتها جذلها وابتهاجها بدون ان تبدر منها بادرة تدل على انها رأت الساعة من قبل ، فما كانت تبغي حمدا ولا شكرا، حسبها دائما ان تضفي على غيرها السعادة والسرور .

وراح "تالبوت" يفكر في هول ما كان يعتزم الإقدام عليه وبشاعته .

- 5 -

خيل إليه انه قد مضى دهر طويل حتى كف جرس الهاتف عن الرنين .. دهر حافل بالأصوات ووقع المقاعد والاسرة وجرها في الممشى المرصوف ، وقد عبقت في الجو رائحة محببة إلى النفس وقال :

– "نورا" ؟

وسمعها تجيب :

– مرحبا "رتشارد" ! .

وادرك ما ينطوي تحت كلماتها من حماسة الترقب والانتظار .. ولكن كيف يهيئها لسماع ما يريد أن يفضي به إليها حتى لا تغضب ؟

وقال :

– إنني بالمستشفى اليوم للقيام بعملية .

ولكنها لا تستطيع ان تعلم انه بعد عشر دقائق ستكون حياة رجل معلقة به وبعمله ومهاراته وثبات يده، بل سيكون في الوسع إنقاذ حياة غير هذا المريض في المستقبل إذا اسفرت هذه التجربة عن النجاح .

قالت وهي لا تزال تنتظر وتترقب :

– نعم .

وما عسى ان تكون المستشفيات والعمليات بالنسبة لها إلا رموزا ومعاني مجردة لا تمت بسبب إلى عالم الحس والواقع ؟

راودته فكرة أن يعيد الساعة إلى مكانها ويلقي اللوم على "السويتش" حين يتحدث إليها بعد الفراغ من عمليته . ولكنه أيقن انه إذا فعل ذلك فلن يستطيع إلى الخلاص من التفكير فيها سبيلا ، وسيظل صوتها المترقب يتداول سمعه .

أغمض عينيه مستسلما إلى عجزه واستخذائه ثم قال :

– لا اعرف ماذا اقول . إنني لم اخبرها ، وكنت قد اوشكت ان افاتحها في الأمر فرأيت الفرصة غير ملائمة .

وكف عن الكلام متوقعا ان تجيب بشيء، ولكنه لم يسمع صوتا فاستطرد قائلا :

– لقد كان عيد ميلاد ابنتي ، وإن كنت قد نسيته . على أية حال لم استطع . .

– إنني مسرورة إذ لم تخبرها .

– ولكنني ساخبرها .

اجابت في فتور :

– بلا ريب . . الوداع يا "ريتشارد" .

ولم يكن امامه متسع من الوقت لاستيقافها وإقناعها بالتريث والاتزان ، فالممرضون يذهبون ويجيئون في قاعة العمليات ، والأطباء ومساعدوهم يتشاورون ويتداولون وهم يستعدون . ورأى "جويل موريان" ورجلا آخر يسيران في المشى نحوه فقال في الهاتف :

ساحضر فور فراغي من هنا .

أجابته في هدوء :

– اؤثر الا تاتي .

واختلطت في راسه الاصوات فقال :

– ماذا تقولين ؟

– لا اريد ان اراك ثانية يا "رتشارد" .

– "نورا" .. بربك !

– ما فائدة الاسترسال فيما نحن فيه ؟ إن هذه هي النهاية .. وداعا .

قال وهو يسمع صوت وضع السماعة في مكانها :

– انتظري دقيقة يا "نورا" .. "نورا" .. انتظري دقيقة . كان يريد ان يمضي في الكلام .. كان يريد ان يقسم لها انه سيخبر "لوسي" ، ولتنتظر الممرضات والاطباء و "جويل" والمريض إلى ما شاء الله ان ينتظروا .

ولكن "جويل" اقتاده للقاء ذلك الرجل ناحل الجسم ذي القميص الازرق الذي يجمع بين عيني شاب ولحية شيخ .

قال "جويل" :

– "رتشارد" هذا هو الدكتور "أوبرلن" الطبيب الشهير بـ "نيويورك" . الدكتور "تالبوت" .

والقى "تالبوت" نفسه ينطق ببعض عبارات التحية والمجاملة وهو لا يكاد يفقه ما يقول لفرط ما يتولاه من الذهول .

قال له الدكتور "أوبرلن" :

– لقد قرأت مقالك عن هذه العملية وأحب حضورها .. فهل لديك مانع من ذلك ؟

فاجاب "تالبوت" بدون ان يفيق من استغراقه :

– لا .. بالتاكيد لا .



كانت "نورا" جالسة بجانب آلة الهاتف شاخصة بعينيها الذاهلتين من النافذة إلى البناء المقابل وهي تنتظر رد وكالة تذاكر السفر بحجز مكان لها .

سوف تغدو حرة طليقة من جديد .

ملأت لنفسها كأسا بدون أن تشعر بوقع تلك الأقدام التي تصعد السلم مسرعة حتى توقفت ببابها .

وسرعان ما قبضت على مقبض الباب بكلتا يديها وراحت تدفع الباب بكل ما فيها من قوة حتى لا ينفتح .

ما الفائدة من السماح له بالدخول ؟ إنه لخير لها أن ينتهي الأمر عند هذا الحد ، وهيهات أن ينجح في تحويلها عما اعتزمت مهما ألح في التوسل والرجاء .

قالت :

- "رتشارد" .. لقد أخبرتك ..

- افتحي يا "نورا" بربك . '

هالها ما يتمثل في صوته من الشقاء والإشفاق والجزع فتراخت أصابعها عن مقبض الباب وعادت إلى النافذة في ضعف وتخاذل .

قبض على كتفيها بشدة وهو يقول :

- أعطيني كأسا .

- ماذا حدث ؟

- بربك لا تسألي .. أعطيني كأسا .

فملأت كأسا قدمتها إليه فأخذها بكلتا يديه وتجرعها دفعة واحدة . ثم راح يمسح وجهه بيده كأنه يطرد صورة بغيضة مروعة وقال :

- العملية .. كدت أقتل رجلا لولا "جويل" .. لقد اضطربت يداي وعجزت عن السيطرة على نفسي، ثم نسيت ما ينبغي عمله بعد أن بدأت !

فقالت له وقد تملكها الجزع :

- لقد كان حسبك ما تعانيه من الهم المبرح والألم الناصب ، ولكنك الآن لا تستطيع حتى القيام بعملك .

فأخذ يجيل عينيه الشاردتين فيما حوله وهو يقول :

– لست أدري ما دهاني .

– لم تنزل بك من كارثة سواي، إني سر بلواك . لقد تأخرت بعيادتك ذات ليلة فلقيت فتاة ومنذ تلك اللحظة غدت حياتك فريسة للألم والعذاب .

فقال لها مشجعا :

– هذا ليس ذنبك .

– كفى .. ذنب من إذن ؟ لو لم اقتحم عليك حياتك لما اصابك شيء من هذا ولكن آن لكل ذلك ان ينتهي فإني راحلة .

وبدا الاضطراب في نبراته وهو يقول لها :

– راحلة ؟ راحلة ؟

– نعم.. وفي وسعك الآن ان تعود إلى مواعيدك ونظامك ..

وقطع عليها كلامها رنين جرس الهاتف فتناولت السماعة قائلة :

– مرحبا .. انا هي . المقصورة ج ؟

فهتف "تالبوت" مرتاعا :

– "نورا" ! إنك لا تستطيعين ! لن ادعك ترحلين ! .

– لقد أحدثت لك كثيرا من الاذى والشقاء ولا احب ان احدث اكثر من ذلك .

– إنك لا تفقهين ما تفعلين .. امنحيني مهلة قصيرة .

– مهلة لماذا ؟

– امنحيني يوما أو يومين فقط وسوف اتروى في الامر واجد وسيلة من الوسائل. سأفعل كل ما تشيرين به إذا رضيت بالبقاء .

اشاحت عنه "نورا" لتستأنف حديثها في الهاتف قائلة :

– ومتى يقوم ؟ .. نعم .. شكرا لك .

وضعت السماعة اخيرا وعادت إلى "تالبوت" قائلة :

– انظر – أيها الحبيب – ليس في وسعنا بعد اليوم ان نلتقي ، ولن ابقى بهذه المدينة مع الحرمان من لقائك . إنني راحلة إلى "نيويورك" الليلة .

– إني اعرف – يا "نورا" – انه لم يكن من الميسير عليك ان تجمعي على هذا العزم.

– من اليسير ؟ لقد كان متعة ! إن الزوجات لا يقدرن ما يفرطن فيه من السعادة والهناءة، ولا يعرفن ابدا للوحدة والوحشة معنى .. اما انا يا "رتشارد" فإني الخليلة التي عليها ان تنتظر وترقب ، وقد اعياني الترقب والانتظار .

- 6 -

كانت العيادة في تلك الليلة غارقة في سكون موحش بغيض و"رتشارد" جالس منذ ساعات يشخص بعينين ساهمتين إلى الورقة التي يريد ان يسطر عليها وداعا إلى زوجته "لوسي" .

لم تبق بفؤاده أثارة من حبها ، ولكنه – مع ذلك – لا يجد المهمة سهلة هينة ، فإنه ليودع مع "لوسي" ولديه وجانبا كبيرا من حياته .

وكيف يتهيا لـ"لوسي" ان تشرح للولدين سبب تخليه عنهما ؟

لقد كان كل شيء يبدو له هينا لا عسر فيه ولا مشقة عندما كان مع "نورا" ، وإنه ليتمنى – من اعماق نفسه – لو كان في إمكانه الرحيل معها ، كان كل ما سلف من حياته لم يكن ، وإنه أهون عليه ان يختفي فجاة بدون ان يترك اثرا من ان يخط هذه الكلمات التي يعرف ما سوف يكون لها من وقع اليم .

لقد وعد "نورا" ان يلتمس حيلة من الحيل ، ولكن هاهوذا يجد نفسه وحيدا بعيادته نهبا للقلق والحيرة والاضطراب ؛ إذ يعلم ان مستقبل ثلاثة أشخاص رهن بما يوشك ان يخط من كلمات .

على انه راح يختم رسالته الرهيبة اخيرا بقوله :

"لقد ظللت عدة اسابيع مضطربا حائرا لا ادري كيف اكاشفك بالحقيقة، ولقد ترويت طويلا وتدبرت العواقب كلها فلم اجد خيرا من هذا الحل ، وستكونين انت والولدان في رغد من العيش ولن تمسكما الحاجة او الحرمان ، وستجدين في خزانة مكتبي .. " .

وكف عن الكتابة عند هذه النقطة وسار إلى خزانته ففتحها واخرج درجها وراح يصف ما تحتويه من السندات وعقود التامين على حياته، ثم اعاد إلى الدرج ما اعتزم تركه لاسرته، فمن الخير ان ياخذ الآن ما يعده لنفسه ولـ "نورا" . ووضع بعض تلك الاوراق بجيوبه عندما سمع طرقا خفيفا على الباب الخارجي، وكان لا يريد أن يقتحم عليه خلوته احد فلم يجب ، ولكن الطرق تكرر فلم يجد مناصا أن يقول :

- نعم ؟

فتح الباب واقبل "بيلي" شاحب الوجه في خطو واهن متخاذل وهو يتكبد مشقة في التنفس والاستواء على قدميه .وقال لاهثا :

- خشيت ان تكون قد انصرفت .

اجاب "تالبوت" وهو يشعر بانه في حاجة إلى من يسعفه ويعنى به :

- إني اوشكت ان أنصرف بالفعل ..

فقال "بيلي" :

- قلبي ، إنه لم يكن قط في مثل هذه الحالة السيئة .

لم يكن "بيلي" من المتشائمين الذين يستسلمون إلى الجزع والهلع . واستجمع "تالبوت" إرادته المتفرقة المشتتة ثم قال وهو يشير إلى احد المقاعد :

- اجلس .

تمتم المسكين :

- إني لا اكاد استطيع التنفس . فطلب إليه "تالبوت" ان يلتزم الصمت والهدوء

فقد يتسع الوقت أمامه لحقنه قبل أن تعاوده النوبة إذا لم يستنفد قوته في الكلام .

رفع "بيلي" صوته قائلا :

- الألم ! الألم !

- سآتيك حالا ، شمر كمك .

وسرعان ما أخرج البطاقة الخاصة بتسجيل سير مرضه وألقى عليها نظرة سريعة ، وبينما هو يهيئ الحقنة إذ سمع صيحة ورأى "بيلي" واقفا يتعلق بالجدار، حتى لا يسقط ، وظل المريض لحظة يجهد قلبه في محاولة الوصول إلى الطبيب، ولكنه لم يلبث أن هوى إلى الأرض وهوت معه منضدة صغيرة عليها تمثال وقد خلا من جميع مظاهر الحياة .

وأسرع "تالبوت" إلى حقنه في ذراعه ووقف يترقب ظهور دلائل الحياة ، ولكن المسكين كان جثة هامدة .

ولعله كان في الوسع نجاة "بيلي" من الموت لو لم يقف .. ولكنه ما كان ليعيش على أية حالة أكثر من أشهر معدودات .

سار "تالبوت" إلى مكتبه وانحنى على بطاقة المريض ليخط آخر سطر فيها، وبذلك تتم القصة ويسدل الستار على آخر فصول رواية الحياة والموت .

الاسم : "والتر بيلي" .

السن : 43 سنة .

الطول : 182 سنتيمترا .

الوزن : 73.5 كيلو جرام .

ملاحظات : حالة خطيرة بالقلب .

وبينما هو يهم بتدوين ملاحظته الأخيرة إذ وقع بصره على بوليصة التأمين على حياته بجانب البطاقة :

الاسم : "رتشارد تالبوت" .

السن : 43 سنة .

الطول : 182 سنتيمترا .

الوزن : 80 كيلو جراما .

نفس السن ، ونفس الطول ، ونفس الوزن تقريبا !

راح يعجب لهذا التوافق الغريب وهو يرفع سماعة الهاتف، لإبلاغ نبأ وفاة المريض وقال :

– أريد إدارة الشرطة .

وبينما هو ينتظر الرد إذ ألفى نفسه يتأمل الوصفين مفكرا .. لقد كانت تتسلل إلى خاطره فكرة دقيقة بارعة تكفل له الخروج من مأزقه الحرج ، وكانت تلح عليه إلحاحا انتباه من طلب التحدث إليه بالهاتف والباعث على هذا الطلب .

وسمع صوتا يقول :

– هنا إدارة الشرطة .. الضابط "كلانسي" .. آلو .. آلو ..

لم يجب "تالبوت" النداء وظل بصره عالقا بالبطاقة لا يتحول عنها ، وأخيرا أعاد السماعة إلى مكانها بدون أن يتكلم ، وقد لاحت على وجهه سمات العزم والاستقرار .

لقد وعدها أن يلتمس لمشكلتها حلا ، وهاهوذا الحل يسعى إليه طيعا هينا لا عسر فيه ولا مشقة .. وهو فضلا عن ذلك خير من كل حل كان يستطيع الاهتداء إليه بإنعام النظر وإعمال الروية وكد الخاطر .

تناول الرسالة التي كان يكتبها إلى "لوسي" ووضعها على منفضة السجائر ثم أشعل بها النار ، ثم وضع بطاقة "بيلي" بالملف ، ورد عقود التأمين التي كان يعتزم أخذها معه إلى الخزانة ، كما أعاد المنضدة التي أسقطها "بيلي" إلى وضعها ، ووضع التمثال الصغير في مكانه المعتاد منها .. وكان رأس التمثال قد انكسر عند سقوطه فالصقه به ولم يبق من آثار الكسر سوى شرخ طفيف لا يفطن إليه أحد .

ذهب إلى جثة "بيلي" ووقف يتأملها هنيهة ، ثم خلع خاتمه ووضعه بإصبع الميت.

واكبر الظن ان لو رآه بعض من يعرفه إذ ذاك لانكره ولخفي عليه ، فإنه منذ رد الساعة إلى مكانها لم يقطع الاتصال بمحدثه فحسب ، بل قطع كذلك كل ما بينه وبين ماضي حياته من الوشائج والصلات .

إنه فعل ذلك عندما استجاب لنداء فؤاده واعرض عن واجباته كزوج واب ، بيد انه كانت لا تزال حينذاك شكوك ناصبة ممضة تتنازعه ونضال عنيف بين ماضيه وحاضره يضطرم في وجدانه . اما الآن ، بعد ان وضع تلك الساعة في مكانها، وبعد ان نقل الخاتم من إصبعه إلي تلك الجثة المسجاة ، فقد خطا الدكتور "رتشارد تالبوت" خطوة جريئة حاسمة لا سبيل إلى العدول عنها والرجوع فيها .

وما كان يجهل خطورة ما اقدم عليه ، بل لقد صادف من نفسه غبطة وارتياحا، إنه بذلك يبدأ حياة جديدة بدون أن تدري زوجته وولداه بما اقترف في حقهم من الخيانة والإثم . سوف ينحل هذا الميت شخصيته ويخلع عليه اسمه فيصبح الدكتور "رتشارد تالبوت" ذكرى من الذكريات .

وكان ثمة عاملان يحفزانه إلى العجلة والإسراع : يجب ان ينفذ في هذه الجثة ما اعتزم ، ويجب كذلك ان يدرك "نورا" قبل ان ترحل إلى "نيويورك" ، فإنما يأتي كل هذا من اجلها ، وسيكون في وسعه إذا ما اجتمعا ان ينظر إلى ما تعرض له من الخطر بلا ندم ولا اسف . اما الآن فمن الخير ان يؤدي هذه المهمة على اعتبار انها آخر ما يضطلع به الدكتور "تالبوت" ، وكلما صرف عنها تفكيره كان هذا اضمن لسرعة الفراغ منها، والفى نفسه اخيرا يقطع بسيارته شوارع المدينة وبجانبه راكب صامت ، عيناه مفتوحتان .

كان الخطر الذي يكتنفه رهيبا هائلا . . . وقد ركز كل قواه فيما كان يظن انها المغامرة الاخيرة . ولما بلغ مشارف المدينة خفت حركة المرور وسنحت له الفرصة ان

يرتقي طريقا جبليا يشرف على الخليج ... وهنا خفت الضوء ، وتعذرت الرؤية وكاد الطريق يقفر من المارة . وعندئذ نقل الجثة أمام عجلة القيادة ، وهبط من السيارة ، وفتح ابوابها .. ثم اخذ زجاجة تحوي كحولا نقيا سريع الاشتعال فرفع غطاءها، ونثر ما فيها على السيارة من الداخل والخارج وعلى الجثة نفسها ، وادار مفتاح تشغيل السيارة ، ثم اطلق العنان لكباحتها ، واشعل فيها النار ، فازدادت سرعة السيارة وهي تندفع إلى الأمام ، ثم هوت في منحدر عميق ، وصارت شعلة من النيران .

امتزج القلق في نفس "رتشارد" بالغبطة والابتهاج والشعور بالفوز ، كأنه يرى جميع متاعبه وآلامه تهوي إلى اليم مع سيارته . تعلقت السيارة في أثناء سقوطها بنتوء صخري في ذلك الجرف حيث ظلت لحظة تندلع منها ألسنة النيران حتى امكن رؤيتها على بعد عدة اميال رغم الضباب ، ثم هوت إلى البحر .

كان الطريق لا يزال مقفرا ، واخذ "تالبوت" يهنئ نفسه بما توخى – في إنقاذ خطته – من اسباب الحيطة والحذر، فلم يترك اثرا يبعث على الشك والارتياب ، وإذا به يلمح عند قدمه زجاجة الكحول ، وكانت اعصابه قد أرهقت إرهاقا شديدا فلم يعد في وسعه التدبر والتفكير ، ولو رؤي على بعد ستمائة متر من تلك الزجاجة لكانت العاقبة وبالا عليه ، فقذف بها في اول مجموعة من العشب عثر بها ، ثم اتجه مسرعا نحو المدينة مجتنبا الظهور للناس بقدر الإمكان .

وكان خليقا برجل دمث الطباع دقيق الحس مثله ان يشعر بشيء من توبيخ الضمير بعد الجلاء الغاشية ، ولكن عدم شعور "تالبوت" بشيء من هذا القبيل دليل على مدى افتتانه بـ"نورا" وفرط شغفه وهيامه .

لم يعد ثمة ما يفكر فيه سوى العودة إلى المدينة وإدراك "نورا" قبل ان ترحل إلى "نيويورك" ، فلو رحلت قبل وصوله لما كان امامه بد من قضاء فترة وحدة حتى يلحق بها ، وهي فترة خليقة بان تحفل بكثير من عذاب التفكير فيما فعل . اما إذا

لقيها فلن يأسف ولن يندم وسيكون في اجتماعهما خير الجزاء .

وبلغ أخيرا مرسى الزورق الذي يعبر الخليج إلى المحطة وقد أوشك أن يسير فأسرع إلى الهبوط إليه وراح يتفرس في الركاب . وانثنت "نورا" دهشة عندما مس ذراعها ، ووقف لحظة لا يستطيع أكثر من النطق باسمها .

- 7 -

وصلت "جادسون" إلى العيادة في موعدها تماما كعادتها ، ووقفت لحظة تنظر في أسى إلى البطاقة المحاطة بالسواد التي علقتها هي نفسها على الباب .

وكان مكتوبا بتلك البطاقة : "نظرا لوفاة الدكتور "ريتشارد تالبوت" ستغلق العيادة إلى يوم الاثنين 15 أيلول (سبتمبر) " .

إن اليوم موعد افتتاح العيادة ، وسيتولى الدكتور "جويل موريان" أعمالها. ولما جاء كان يبدو عليه الوجوم والاكتئاب كأنه يحس بوطأة المسؤولية التي ألقيت على عاتقه .

وقالت الفتاة :

– أسعدت صباحا يا دكتور .

– أسعدت صباحا يا "جادسون" .

– ألا يخيل إليك أن فقيدنا لابد أن يحضر كعادته ؟

ولقد كانا معا لا يفتآن يذكران كرم خلق الدكتور "ريتشارد تالبوت" ومقدار حذقه وبراعته على الرغم من انقضاء عدة أسابيع على وفاته .

قال "جويل" :

– أجل . متى يحل أول مواعيدي ؟

– في الساعة العاشرة .

– حسنا . . إن لديّ أشياء تتطلب الإنجاز والتصفية .

ولم يكد يبلغ مكتبه حتى دق جرس الهاتف ، وكانت المتحدثة ارملة زميله السيدة "تالبوت" .

– مرحبا "لوسي" .

– ارجو الا اكون قد سببت لك شيئا من الانزعاج ولكني اضطررت إلى الاتصال بك .

– لا شيء من ذلك .. هل من شيء استطيع القيام به ؟

– إني منزعجة قليلا؛ فقد ارسلت إلى المصرف عدة حوالات ولكنه ردها بدعوى ان رصيدنا قد نفد .

فهتف "جوبل" :

– نفد ؟ لا ريب ان ثمة خطا ..

واجابت "لوسي" في لهجة تشف عن الحيرة والارتباك :

– يظهر ان "رتشارد" سحب في العهد الاخير مبالغ غير قليلة ، وقد سحب مبلغا ضخما في يوم الحادث ذاته ، ولقد كان دائما ينبئني إذا جد ما يتطلب نفقات غير معتادة ، فهل تعرف عن هذا الامر شيئا ؟ .

ولم يكن "جوبل" يحب التدخل في مثل هذا الشان ، ولكنه راى ان التجاءها إليه امر طبيعي ، فاجاب :

– لا .. لا اعرف شيئا ابدا .. ولكنني سابحث لعلي اهتدي إلى السبب ، وإذا كنت في حاجة ..

فاجابت على الفور :

– لا .. ليس هذا ما يقلقني؛ فإن لدينا نقودا بحساب الادخار .. إنني لا استطيع فهم هذه التصرفات .

قال "جوبل" وهو يشعر بمثل حيرتها :

– لا تشغلي بالك بذلك ، فسافحص الحسابات واتصل بك فيما بعد .

واستدعى "جادسون" وسألها :

- هل هناك زيادة كبيرة في نفقات العيادة خلال الاشهر الاخيرة ؟

- لم يكن هناك شيء من ذلك بقدر ما اعلم . لماذا ؟ هل من امر غير عادي ؟

تمتم "جوبل" في ارتباك :

- لست ادري حتى الآن .

وظل جالسا إلى مكتبه بعد انصراف "جادسون" وهو يفكر فيما طرا على احوال "تالبوت" من التبدل قبل موته بزمن غير طويل .

وحاول ان يهتدي إلى الصلة بين هذا التبدل وما تحدثت عنه "لوسي" من الزيادة الكبيرة في نفقاته .

لقد كان "رتشارد" دائما شديد الحرص دقيق النظام فيما جل وهان من شؤونه، وكان من العسير ان يختلط به "جوبل" يوميا ذلك الاختلاط الذي تفرضه زمالتهما بدون ان يلم بالكثير من طباعه واخلاقه ..

وقد كان في احواله اخيرا ما يستوجب الملاحظة ويثير العجب .. فهنالك تأخره عن موعد العيادة في الصباح، وما يبدو عليه من دلائل الإعياء والحاجة إلى النوم، ثم ما تلا ذلك من اكتشاف جثته المحترقة بين حطام سيارته عند سفح الاكمة، وهاهوذا يسمع الآن انه سحب في ذلك اليوم نفسه مبلغا كبيرا من المال .

إن زوجة "رتشارد" لم تكن تعرف إلا قليلا او لم تكد تعرف شيئا عن كل هذا الذي طرا على حياة زوجها ، وليس في وسع "جوبل" ان ينظر إليه في اطمئنان .

وقصد إلى غرفة "رتشارد" وفتح بابها فخيل إليه ان شخصية زميله الراحل تملأ فراغها وتتخلل كل شيء فيها .

شعر "جوبل" شعورا خفيا مبهما بانه سيجد ما يميط اللثام عن هذه الاسرار المستغلقة التي تحيره وتقلقه .

وازاح الستائر فغمر الضوء الغرفة، ووقف يقلب عينيه الناقدتين فيما حوله

متفحصا .

بدا له ان كل شيء بالغرفة كما كان من قبل تماما وكما تركه "رتشارد" ، بيد انه عندما استدار ليغادرها وقع بصره على ذلك الشرخ الصغير بعنق التمثال ، وما كاد يمسه حتى انفصل الراس في يده، ورأى حافة المنضدة التي عليها التمثال مقشورة فوضع التمثال على المكتب وجلس وراح يحدق إليه مفكرا .

اشعل سيجارة وادنى المنفضة وإذا به يرى فيها قصاصة صغيرة مسودة من الورق عليها عبارات متقطعة يمكن قراءتها .

"لقد .. عدة أسابيع .. كيف أكاشفك .. وتدبرت العواقب كلها .. وستكونين والولدان .. رغد من العيش " .

كان الفراغ الذي بين الكلمات محترقا والكلمات نفسها يطمسها سواد الحريق، ولكن ما قرأه "جويل" كان كافيا لتكوين سلسلة متصلة الحلقات : حالته الفكرية، واسرته، وانباء غير سارة .

وقر رأيه أخيرا على ان مكان هذه القصاصة من الورق ليس هنا بل في إدارة المباحث الجنائية .

وبينما هو في طريقه إليها إذ عرج على المصرف وراجع حساب زميله الراحل، قال لرئيس إدارة المباحث :

– هذا هو كشف تفصيلي للمبالغ المسحوبة : اربعمائة .. اربعمائة .. خمسمائة .. وفي يوم الحادث ستة آلاف وخمسمائة دولار .

ولاحظ الرئيس ان الاطباء شديدو العناية بالحقائق لا يكاد يفوتهم شيء مما يقع تحت بصرهم . وسأل "جويل" :

– هل كان الدكتور "تالبوت" يقامر ؟

– إذا كان قد فعل شيئا من ذلك فإني لم اسمع به ، ولكني استبعد ذلك جدا .

– اليس لديك اي راي فيما عساه ان يكون قد صنع بهذه النقود ؟

فاجابه "جوبل" :

- نعم ليس لديّ شيء عما تذكر ، ولذلك جئت إليك . إن ظاهر هذا الأمر يبعث في نفسي كثيرا من الشك والارتياب .

وساله الرئيس :

- وكيف خلف اسرته ؟

- إنه لم يكن بالرجل الثري ، ولكنه ترك لاسرته ما يضمن لها سعة العيش.

فقال الرئيس وهو يتارجح في مقعده :

- لا يمكن إذن ان يكون قد انتحر؛ لانه خسر بضع مئات من الدولارات . لقد فهمت أنك تعرفت على الجثة فهل هذا صحيح ؟

- اجل، فإني لم احب ان اجشم السيدة "تالبوت" ..

واحتبس صوته هنيهة؛ إذ غلبه التاثر، ثم اردف قائلا :

- اعني ان الجثة كانت محترقة تماما ولا يمكن تمييز معالمها .

- إني أقدر ذلك . ولكن بم استدللت على الجثة ؟

اجاب "جوبل" في شيء من التردد :

- لقد كان هناك خاتمه ، وساعته ، وعدة اشياء اخرى .

- اشد ما اتمنى ان اعرف ما كان مكتوبا بتلك الورقة أو من الذي احرقها . هل تظن انه كان ضحية لبعض من يبتزون النقود منه بالتهديد ؟

فهتف "جوبل" مشدوها :

- ابتزاز ؟

- اجل .

- وأية فضيحة كان يمكن إرهابه بإذاعتها ؟ لقد كانت حياته مثال الاستقامة والكمال .

فاعتدل الرئيس في جلسته قائلا :

– هذه هي طريقة هذا الصنف من المجرمين يا دكتور . إن الواحد منهم يكتشف سرا لا يعرفه سواه من الناس ثم يبيعه بأفدح ما يستطيع من الاثمان . وجريمة الابتزاز تجلو لنا كثيرا من الالغاز العويصة المستعصية التي بين أيدينا ، وفيها وحدها تعليل سحب تلك المبالغ من المصرف ، وما لاحظته من الهم والاكتئاب على صديقك الراحل في العهد الاخير ، وهذه الورقة التي احترقت ولم يبق منها غير قصاصة لا تشفي غليلا .

وبدت في وجه "جويل" الحيرة وإن لم يقتنع كل الاقتناع .

واستطرد الرئيس قائلا :

– ليس امامي كثير من المعلومات والآثار التي تنير لي السبيل ، ولكني اؤكد لك ان الدكتور "تالبوت" لم يمت في حادث من حوادث القضاء والقدر بل راح – فيما يغلب على ظني – ضحية تدبير اثيم وجريمة متعمدة .

ثم وقف في عزم قائلا :

– إني ذاهب لمعاينة حطام السيارة واوثر ان تذهب معي .



على بعد آلاف من الاميال في مدينة "نيويورك" العظيمة، وبعد انقضاء عدة ايام على مقابلة الدكتور "جويل موريان" لرئيس مكتب المباحث الجنائية ، اقترب "رتشارد تالبوت" من احد أكشاك بيع الصحف وعلى عينيه نظارة سوداء وسأل البائع :

– ألديك إحدى الصحف التي تصدر في "سان فرانسيسكو" ؟

– أيوافقك عدد يوم الاربعاء الماضي ؟

– نعم .

وانتحى "رتشارد" بالصحيفة جانبا وهو يعاني اشد القلق والإشفاق ، وليست له

سوى امنية واحدة هي ان يطالعه نعيه بتلك الصحيفة .

ولقد كان النعي بها بالفعل تتوجه صورته :

"اقيم هذا الصباح بكنيسة "سانت لوك" الصلاة على الدكتور "رتشارد تالبوت" الطبيب الشهير بهذه المدينة ، وقد لقي مصرعه في حادث سيارة في الاسبوع الماضي ، وقد كان الدكتور "تالبوت" معروفا في الدوائر الطبية .." .

كان هذا ابدع ما قرا في حياته كلها ، وما احراه ان يدعى بعثا لا نعيا ، ولقد عاني ترقبه اشد العنت والإرهاق ، ولكن فترة الانتظار قد انقضت ، واصبح في وسعه أن ينعم قليلا بالراحة والهدوء .

رفع نظارته السوداء، واخذ يمسح جبينه وهو ينظر حوله كانه لا يستطيع ان يصدق انه غدا حرا طليقا . •

ولكنه لا يزال في حاجة إلى الاعتصام بالصبر والحذر حينا من الزمن ، وإن كان قد اجتاز المرحلة الخطيرة العصيبة.

طوى الصحيفة – حسبما تعود طوال حياته من النظام والعناية – والقى بها في احد صناديق الفضلات ، وكان الصندوق مملوءا إلى حافته فنظر "تالبوت" بطبيعة الحال ليستوثق من استقرار الصحيفة به ، وإذا به يرى الصفحة الأخيرة معرضة للنظر وفيها صورة سيارة محطمة ، وسحب "تالبوت" الصحيفة حتى ظهر الخبر المنشور تحت الصورة :

"النائب العام يامر بالتحقيق في مصرع "تالبوت" "

حدثت بعد ظهر اليوم مفاجاة احدثت كثيرا من الدهشة؛ إذ اعلن النائب العام بمنطقة "سان فرانسيسكو" ان الظروف التي تكتنف مصرع الدكتور "رتشارد تالبوت" تدعو إلى الشك في ان الحادث الذي افضى إلى موته كان عارضا. وكان قد اخذ الصحيفة عندما قرا العنوان ، فكانت تهتز اهتزازا عنيفا في يده المرتجفة ، ثم انتزع الخبر واعاد الصحيفة إلى الصندوق، واخذ يتلفت مرتاعا ذات اليمين

وذات اليسار كما كان يفعل عندما وقف فوق الخليج والنار مشتعلة بسيارته في أحشاء الظلام ، ثم أسرع بوضع النظارة السوداء على عينيه والعودة إلى الفندق .

كان الفندق في بقعة هادئة شرق المدينة ، ولم يعرفه البواب اول الأمر وهو يضع على عينيه تلك النظارة السوداء ، وراح يحدق إليه ، وفي شيء من التردد رفع "تالبوت" نظارته فقال البواب :

- طاب صباحك يا سيد "طومسون" .

بيد ان "تالبوت" لم يكن قد الف بعد اسمه الجديد ، فلم يرد التحية إلا بعد برهة ملحوظة ، ثم دخل إلى الفندق .

- 8 -

كان "تالبوت" قد وعد "نورا" بالاتصال بها في غرفتها فور وصوله إلى الفندق ، ولكنه عاد مهموما مثقل الخاطر! فلقد تضاعف من حوله الخطر حين ظن انه سيتمتع بالدعة والاطمئنان .

ولم يكن ثمة من يبثه همومه ويلتمس عنده المعونة والمواساة؛ إذ إن "نورا" لا تعرف مما فعل شيئا ، فقد ظن ان لا حاجة به إلى إظهارها على ذلك مادام قد قطع ما بينه وبين الماضي من الصلات والأسباب .

ولقد ران على بصره ما أفرغ عليه اجتماعه معها من السعادة والهناءة ، وما يشغله من ترقب نتائج الكشف عن حطام سيارته ، فلم يكلف خاطره التفكير في أخطار بعيدة ليست في الحسبان .

كان يريد ان يعيش مجهولا في غمار العاصمة المزدحمة المترامية الأطراف ، وخال "سان فرانسيسكو" تبعد عنه بعد الارض عن السماء ، ولكن هاهوذا يراها اقرب إليه من نفسه ، وهاهوذا يرتجف رعبا من تحقيق النائب العام.

إن عليه الآن ان يترسم خطى من تطاردهم العدالة وتجد في اثرهم ، ويحدق

أساليبهم في التخفي والاستتار ، وإن شاءت سخرية الاقدار ان يكون المطارد والطريد !

ولما سكن جاشه قليلا ذهب إلى الحمام واخذ يزيل شاربه فسمع طرقا في الممشى وقال مرتاعا :

– من هناك ؟

– إنه انا ايها الحبيب .. هل استطيع محادثتك لحظة ؟

– ليس الآن يا "نورا" ..سالحق بك بعد برهة يسيرة . فقالت مداعبة :

– هذا خليق بان يثير الريبة والشك . لقد كنت اظن انك ستدعوني فور عودتك!

واجابها في حزم :

– إني آسف ، ولكن كان لديّ بعض الاعمال .

وسمعها تضحك قائلة :

– إذن ساذهب لارتداء ثيابي للعشاء .

وعاد إلى حلاقة شاربه وهو يتمنى لو كان في وسعه ان يمحو جميع آثار الدكتور "تالبوت" بمثل هذه السهولة واليسر .

ولما عادت "نورا" شغلها الاهتمام بثوب السهرة الجديد الذي ترتديه عن ملاحظة إزالة شاربه . وسالته وهي واثقة بإطرائه واستحسانه :

– ما رايك في هذا الثوب ؟

كاد ينسى همومه وأتراحه حين اخذت تنثني امامه ذات اليمين وذات اليسار؛ لتعرض عليه الثوب من مختلف الزوايا ، فقد كان ذلك الثوب يبرز محاسن جسمها كما يبرز اللحن هذا المقام من كلمات فلم يزد على ان قال :

– إنه جميل جدا .

فقالت في مرح الحبيبة الواثقة بالصفح عن تبذيرها؛ لانها لم تقدم عليه إلا

لإرضاء حبيبها :

- لقد خرجت وابتعت عدة أشياء .. انتظر حتى تراها .

ولكن "رتشارد" ظل واجما لا يحير جوابا . ولم تعد تطيق صبرا على سكوته عن إطراء ثوبها الجديد فدنت منه ورفعت إليه عينيها متسائلة فقال :

- إنه جميل .

- اتراه لائقا ؟

- كل اللياقة .

وبدت على وجهها أمارات الخيبة والالم فقالت :

- إن هذا الحديث ممل فاتر ولست اليوم كعهدي بك.

- حقا ؟

- ها ! لقد حلقت شاربك .. كنت أوثر الا تفعل، فقد كان يروقني منظره .

- إني آسف .. ساطلق لك شاربا آخر فيما بعد .

وخف اضطرابه اخيرا فاستطاع ان يوجه عنايته إلى ثوبها الجديد وقال :

- إنه جميل وانت رائعة فيه .

فاجابته وهي تبتسم له ابتسامة مشرقة :

- ولذلك أحب ان تأخذني الليلة إلى ملهى "فيل ديناردو" .

وكان "رتشارد" لا يتمنى إلا ان تختار مكانا آخر غير هذا الملهى، فإن مجرد ذكر اسم "ديناردو" يثير في نفسه كثيرا من الغضاضة والنفور، فلقد كان واثقا بان "ديناردو" يكن لـ"نورا" هوى شديدا مبرحا، وكانت "نورا" تعتزم العمل بملهاه إذا اخفق "رتشارد" في مغادرة "سان فرانسيسكو" . وفضلا عن هذا كله فإن لـ"ديناردو" صلة بغيضة بحياته القديمة وإن كان لا يعرف منه غير هيئته ووجهه .

كان "رتشارد" يشعر دائما بالغيرة تنهش فؤاده من "ديناردو" ، ولكن لديه الآن اقوى البواعث على تجنبه وتحاشيه .

واستطردت "نورا" بدون ان تفطن إلى اضطرابه :

– اجل . فلنذهب إلى ملهى "ديناردو" ولنفاجئه ، فما عساه ان يقول حين يجد انني هنا ولم ازره ؟

واجابها معترضا :

– ولكني اؤثر الا نذهب .

– هيا يا "رتشارد" فسنلقى كثيرا من المتعة وساحجز مائدة . قال "تالبوت" في شيء من الحدة :

– لا اريد ان اراه ولا اريد ان تريه انت، بل لا اريد ان ارى احــدا ممن كنت اعرفهم في "سان فرانسيسكو" . إن علينا – ايتها الحبيبة – ان ناخذ بادق اسباب الحذر والاحتياط، وان نلوذ باذيال السكينة والهدوء حتى يصدر حكم الطلاق . ولست احب بحال ان اذهب إلى مكان قد القى به من يعرفني .

وقالت في دهشة :

– ولكني لا افهم لكل هذا معنى . إننا لم نات عملا نخجل منه .

واجابها مصرا :

– ولكننا قد نلتقي ببعض من لا نرغب في لقائهم، وتتلو تلك اسئلة لا احب الإجابة عنها . إنني طبيب يا "نورا" ولابد لي من الحصول على تصريح بممارسة مهنتي في "نيويورك" ، وهذا ينطوي على كثير من المصاعب التي لا تفهمينها، ولهذا انتحلت اسم "طومسون" إلى ان نسوي كل شيء .

ولكن "نورا" ظلت في حيرتها وارتباكها وقالت في هدوء :

– إنما اريد معونتك لا عرقلة مقاصدك بتطفلي ، ولكن الذي لا اكاد افهم له سببا هو اننا لم نذهب إلى اي مكان مذ هبطنا العاصمة .

وحاول ان يسكن من قلقها وهو يعجب؛ إذ اصبح ولعها بالحياة وظماوها إلى التنهل من مواردها اعدى اعدائه، وقد كان ذلك اخص ما يميزها ويحببها إليه .

وقال :

– سنجد لذلك متسعا من الوقت فيما بعد . ولماذا لا نذهب إلى مطعم صغير كي نتناول العشاء ، ثم نذهب إلى إحدى دور السينما ؟ إننا لم نذهب قط إلى السينما معا .

فاشارت إلى ثوبها قائلة :

– ولكنني لا ارتدي ما يلائم هذا البرنامج .

فاجابها :

– أعدك بان تلبسي هذا الثوب في فرصة اخرى .

قالت وهي تهز كتفيها :

– لا باس . سارتدي ثوبا آخر .

تزايد شعور "تالبوت" بالوحشة، وتجاوز القصد في معاملته لما رآه في وجهها من آيات الالم المرير مع عجزه عن مصارحتها بما يحدوه على ركوب هذا المركب الخشن. وما كان يدري ان هذا الظل الطفيف الذي قام بينهما سوف ينمو ويتكاثف حتى يهدد حبهما ، هذا الحب الذي جازف في سبيله بكل شيء! فلقد ظلت الأسابيع الطوال مثالا للصبر والاحتمال ، وتقبلت في غير تبرم ضروبا من الحذر تبدو لها بدون ريب مسرفة لا موجب لها . ولم ياخذ صدرها يضيق بهذه الحال إلا بعد أن امتدت عزلتها بهذا الفندق الهادئ عدة اشهر .

وقد كانت تنفر من التستر والاستخفاء ، ولم تر اول الامر شيئا غير عادي في تنكب "رتشارد" المحافل والمجتمعات! فلقد تخلى من اجلها عن بيته واهله وعمله ، فمن الطبيعي ان تمر به فترة من الاسى والندم . وكانت تعتمد على رفقها وعنايتها به في إذهاب ما يعتاده من الندم ويعكر عليه صفوه من الشجن ، ولكن حالته لم تزد – على مرالاشهر – إلا سوءا وتفاقما .

إنهما اصبحا سجينين بهذا الفندق ، وليس من اليسير على فتاة كـ"نورا" –

كانت تحيي الليالي ساهرة بين الاضواء والحفلات - ان تسكن إلى هذه الحياة المقيدة .

كان نزوعها إلى الظهور امام الناس في صحبة الرجل الذي ستقترن به حقا طبيعيا لا ينكره عليها احد، ثم إن الأعذار التي كان ينتحلها حبيبها في رغبته في التخفي والكتمان لم تكن لترضيها او تقنعها؛ فلقد تخلت عن مقاومتها ومحاولة الرحيل عن "سان فرانسيسكو" إلى "نيويورك" للعمل بملهى "ديناردو" عندما اجمع "تالبوت" رأيه على اللحاق بها، ولكنها لم تتحمل قط ما كان يستحثها إلى ذلك المسلك ، وهو نفورها من كل خطة عوجاء تنقصها الصراحة والوضوح .

وإنه ليخيل إليها أن "رتشارد" يخجل من ان يراه أحد معارفه القدامى في صحبتها على الرغم من هذه الاعتبارات كلها ... وهيهات ان ترضى امراة بمثل هذا الموقف الحرج والوضع الشاذ .

وهكذا انتاب القلق والاضطراب "نورا" كلما سرى إليها ما يعتمل في نفس "تالبوت" من التوجس والخوف .

- 9 -

ازداد قلقها في النهاية شدة وظهورا حتى حمل "تالبوت" على محاولة التخفيف من اثقال حيطته وحذره؛ فلقد كان من العبث ان يجازف بكل هذا ، ثم تنحل عرى سعادتهما من قبل ان تبدا .

وكان قد عاد من إحدى تلك الزيارات التي يقوم بها منفردا لذلك الكشك الذي تباع به صحف "سان فرانسيسكو" .. ولقد اغفلت الصحف الإشارة إلى الحادثة منذ أكثر من شهر ، ويظهر ان الظروف التي تكتنف موت الدكتور "تالبوت" كانت تندلف إلى زوايا الظلام ، وتاخذ طريقها إلى ملفات الامور المنسية التي لم يجدوا لها حلا .

فلما دخل الغرفة اخذت "نورا" تنظر من مقعدها حولها في استرخاء ، فقبل وجنتها قبلة فاترة .

وسألته بدون اكتراث مشيرة إلى ربطة بيده :

- كتب اخرى ؟

اجابها بهدوء :

- نعم .. لقد جئتك بكتابين جديدين .

فقالت :

- لئن دام هذا طويلا فساغدو من اساطين العلم والادب .

وقال مغيرا مجرى الحديث :

- اتحبين ان تشربي شيئا ؟ إني استطيع ان احضر لك شيئا من الطابق الاول .

- هذا أمر لا نفع فيه ولا غناء .

كان التوتر الذي نشأ بينهما اخيرا يسمم هذا الحديث .

قال "رتشارد" :

- إني اعلم ما يكتنفك من السآمة والقلق ، ولكني بسطت لك السبب .

فاجابته في لهجة من يلقي قولا حفظه عن ظهر قلب من كثرة تكراره :

- أعرف ذلك .. يجب ان تلزم جانب الحرص حتى يتم الطلاق .. ولكن متى يتم ؟ إني ارى انه كان يجب ان يكون لنا الآن بيت نعيش فيه كغيرنا من الناس، ثم عملك ؟ الم يكن يخلق بك ان تفعل شيئا كالبحث عن مكان لعيادتك مثلا ؟ هل قدر علينا ان نقضي بقية عمرنا بهذه الغرفة من الفندق ؟

اجابها :

- إني ابغض ما نحن فيه يا "نورا" كما تبغضينه ، فياحبذا لو تعلقت باهداب الصبر .

فانفجرت مصرحة بشكواها لاول مرة وهي ساخطة على نفسها لخروجها على

صحتها وعليه، إذ يضطرها إلى ذلك .. وهتفت :

- الصبر ! الصبر ! إن لنا هنا عدة أشهر بدون أن يجد شيء في حالتنا ، ونحن لا نذهب إلى مكان ولا نلقى احدا ابدا، فإذا ما غادرنا الفندق لم نقصد إلا إلى مطعم حقير او دار قريبة للسينما، بل إننا لا نستطيع ابدا ان نسير قليلا في وضح النهار .

لم يغضب "رتشارد" ، إذ قرا في ثورتها عظيم ما كلفت نفسها من الصبر والاحتمال ، ولم يكن ثمة سوى جواب واحد ، ولكنه لا يجرؤ على النطق به .

تمتم وهو يوجه الحديث إلى نفسه أكثر مما يوجهه إليها :

- ربما اكون قد تجاوزت الحدود المعقولة في الاحتياط ، ولعلنا في غير حاجة إلى الجزع والإشفاق .

فبادرت "نورا" تشجعه :

- أجل .. ولم تخاف ؟ أتخشى ان يرانا احد معا ؟ اي شيء نرهبه في ذلك؟

وسره ان تعود إلى نظراتها دلائل البشر والمرح ، واخذ يذكر نفسه بإغفال الصحف كل إشارة إلى مسالته ، وقال :

- اتريدين الخروج الليلة ايتها الحبيبة ؟

فاجابته متحمسة :

- لأشد ما اتوق إلى بعض الحركة والنشاط بعد طول الركود والسكون ، واريد ان احس بالحياة مرة اخرى .

لقد كانت بهذا تعبر عما يجيش بصدره فامسك بيديها قائلا :

- حسنا .. سآخذك إلى اي مكان ترغبين في الذهاب إليه، وسنخرج فور فراغك من تغيير ثيابك واستكمال زينتك .

ولم ير احدهما الآخر منذ أسابيع في مثل ما غمرهما الآن من الطلاقة والمرح، ولم تكن "نورا" تاسف على شيء إلا ما لقيت من الجهد في حمله على هذا العمل الخفيف .

كان ملهى "ديباردو" صغيرا انيقا لا يختلف إليه غير طبقة محدودة من علية الناس . واستقبل رئيس الخدم "رتشارد" وصاحبته قائلا :

- هل حجزتما مائدة ؟

اجاب "تالبوت" :

- نعم ، باسم "طومسون" .

- "طومسون" ؟

فقالت "نورا" :

- إن السيد "ديباردو" على علم سابق بمجيئنا .

ظهر "ديباردو" على الاثر كأنها ضغطت زرا كهربائيا لاستدعائه ، وهو على ما عهد فيه من الرقة واللين والإغراق في التلطف والمجاملة ، وداخل "تالبوت" شيء من الغيرة وهو يتأمل ملامحه اللاتينية الوسيمة ، وعينيه النجلاوين الفاتنتين ، وهندامه المسرف في الاناقة والجمال ، بيد انه لم يكن يدري ما يستكن تحت هذا المظهر الذي تقتضيه طبيعة عمله من حسن الإخلاص والوفاء، وهو الأمر الذي لم تكن "نورا" تجهله .

قال رئيس الخدم :

- إنهما يقولان إنك تعلم سلفا بمجيئهما .

فابتسم "ديباردو" مرحبا، وانحنى على يد "نورا" انحناء عميقا وهو يقول :

- إننا دائما في انتظار هذه السيدة الكريمة ولكنها قلما تاتي .

ثم قال لها في غير كلفة :

- كيف حالك ايتها الحبيبة ؟

اجابت في هدوء :

- على ما يرام يا "فيل" .. إنك رايت السيد "طومسون" من قبل .

- اجل .. كيف حالك يا سيدي ؟

- بخير .. شكرا لك .

فقال "ديناردو" :

- هيا إلى المائدة التي حجزتها لكما . كيف تجدان هذا المكان ؟

اجابت "نورا" وهما يسيران في اثره :

- إنه جميل جدا .

كان "ديناردو" يعامل "رتشارد" باقل ما ينبغي من العناية والاحترام ، ووجه كل عنايته إلى "نورا" ، وانطلق يتحدث إليها و"رتشارد" يلاحظهما صامتا .

وقال لها وهو يتأمل ثوبها الاسود الأنيق ويتفرس في وجهها الذي اشرق بالسرور والابتهاج :

- إنك رائعة الفتنة كالعهد بك دائما . متى وصلت إلى "نيويورك" ؟

اجابته متلعثمة :

- منذ زمن .

فسألها دهشا :

- لا ريب انك لم تتعجلي زيارتي .

- كان ثمة ما يدعو إلى هذا من الاسباب .

وبادر "رتشارد" إلى مقاطعتها قائلا :

- لا احسب السيد "ديناردو" تعنيه شؤوننا الخاصة .

اجابت "نورا" :

- ولكن لا باس من ان نخبر "فيل" بعزمنا على الزواج .

فقال "ديناردو" وهو لا يكاد يحسن كتمان عواطفه :

- تهنئتي لكما . لست ادعي ان هذا النبا يسرني وانت تعرفين السبب .

ثم التفت إلى "رتشارد" قائلا :

- إنك سعيد الحظ جدا يا "طومسون" .

حام حولهم رجل اشار إليه "ديناردو" فكاد "رتشارد" يصعق إذ رآه مصورا فوتوغرافيا . وسألهما "ديناردو" :

- ما رأيكما في اخذ صورة لنا نحن الثلاثة ؟

فهتف "تالبوت" :

- كلا .. كلا .. لندع ذلك إلى وقت آخر .

قالت "نورا" :

- إن ثمة قضية طلاق يا "فيل" يجب الفراغ منها اولا .

فقال "ديناردو" وهو يصرف المصور :

- فهمت . لقد ظننت اول الأمر ان ثمة جريمة سرقة او قتل .

ولقد كان انزعاج "رتشارد" مسرفا حقا ، وقال في لهجة سريعة :

- بربك لا تعتقد ان عليك قضاء كل وقتك معنا ، فلا ريب اننا نشغلك الآن عن عملك .

فنهض "ديناردو" مطيعا هذا الإيحاء الجاف وقال :

- شكرا . إنني الليلة مشغول حقا . ثم قال لـ"نورا" بدون ان ينظر بعد ذلك نحو "رتشارد" :

- سارسل الشراب على حساب الإدارة مع الحب والإخلاص .

ولما انصرف قالت "نورا" :

- إن ما فعلت لم يكن سائغا يا "رتشارد" .

فاجابها في حدة :

- لقد كان يسرف في الأسئلة .

- ولكنه صديق قديم لي .

- إنني آسف يا "نورا" لقد جئنا هنا ابتغاء اللهو والسرور فلناخذ فيما جئنا من اجله .

كان "ديناردو" قد اوحى إلى فرقة الموسيقى بتوقيع لحن تحبه "نورا" وتؤثره، وهو

اللحن الذي كان يعزف في تلك الليلة التي قصد فيها "تالبوت" إلى الملهى في "سان فرانسيسكو" ليلتقي معها . ولما دلفا إلى حلقة الرقص تلاشت تلك السحابة من سوء التفاهم وقالت "نورا" في رقة :

- اتذكر ؟

اجاب "رتشارد" :

- نعم أذكر .

وراح ينظر في عينيها لاول مرة منذ اسابيع وهو يضمها إليه بشدة ، وغمرتهما نشوة من السعادة والمرح انستهما كل ما حولهما .

وبينما كانا في هذه النشوة إذ هما يصطدمان براقصين آخرين .

وكان الرجل متوسط العمر بادي الجد ، ولكنه استقبل اعتذار "رتشارد" ضاحكا غير مستاء ، بيد أنه لم يستأنف الرقص بل وقف ينظر إلى "تالبوت" كأنه يحاول ان يتذكر اين رآه قبل ذلك .

وقال في نفسه اخيرا : « لا استطيع ان اذكر ، ولكني واثق بانني رايته قبل ذلك في مكان ما » .

كان الرجل مصيبا ، فإنه ذلك الطبيب الشهير الذي قصد من "نيويورك" إلى "سان فرانسيسكو" ليشهد آخر عملية اجراها الدكتور "رتشارد تالبوت" .

وادار إليه "رتشارد" ظهره وهو يكاد يجر "نورا" جرا قائلا في خشونة غريبة :

- هيا .. إننا منصرفان .

- 10 -

عادا إلى الفندق في صمت ووجوم، ولكن "رتشارد" كان مخطئا أشد الخطأ إذا كان قد جال بخلده ان هذا الحادث يمكن ان يمر بدون تعليل او اعتذار، فلقد حدث و "نورا" في غمرة السعادة والابتهاج فكان من الطبيعي ان يحدث بنفسها

أثرا شديدا محطما، وحسبها أن تدفع إلى مغادرة الملهى دفعا لا رفق فيه ولا مجاملة قبل أن تودع "ديناردو" الذي لم يكن في مسلكه حيالهما ما يؤخذ عليه .

كلا .. إنها لا تحتمل ذلك ولو من "رتشارد" .

ولما دخلا غرفة الجلوس وقف وفي عينيه تلك النظرة المضطربة اليائسة التي طال عهدها بها في الأسابيع الأخيرة وقال :

- إني آسف؛ إذ أفسدت عليك هذا المساء ، وسأعوضك عنه خيرا في فرصة أخرى بعدئذ مساء .

تولتها الدهشة والعجب؛ إذ رأته بعد الأمر منتهيا عند هذا الحد ويرى في ذلك الوعد الغامض المبهم أوفى جزاء لها على خروجهما المتعجل وتبديد ما كان يغمرهما معا من السحر والافتتان في أثناء الرقص .

كان هذا وحده خليقا بأن يثير في نفس "نورا" من النفور والاستياء أكثر مما أثاره الحادث نفسه ، فلئن كان في وسعه مثل هذا الإغفال لعواطفها ومشاعرها في وقت يعلم فيه مقدار اهتمامها به واحتفالها به ، فإن الأمل في أن ينعما معا بالسعادة ضعيف واهن .

ولقد كانت كثيرات من النساء يرين أن لهن الحق في معرفة الباعث قبل مغادرة الملهى ، ولا ينتظرن في صمت مثل "نورا" حتى يتفضل من تلقاء نفسه بالشرح والإيضاح . بيد أنها عندما رأت أنه لا ينوي أن يفعل شيئا من ذلك رشقته بنظرة فيها من العطف والحنان أكثر مما تحويه من النفور والاستياء . ولكن هدوءها كان يشف عن عزم لا يلين ، وقالت :

- لماذا الخوف والهلع من ذلك الرجل ؟

فأجابها في هدوء :

- ألا يمكن إرجاء الحديث إلى الغد ؟ إني أشعر بصداع أليم .

وقالت "نورا" :

- نعم .. لابد من ذلك الآن !!

وهم بالاعتراض والاحتجاج ومغادرة الغرفة ولكنه لم يلبث ان وقف حيث هو . وقال بدون ان يحاول تجنب نظراتها كما كان يفعل :

- لقد كذبت عليك في كل شيء ، وطالما اردت مكاشفتك بالحقيقة ولكني لم آكن اجد إلى ذلك سبيلا . هاتنذي ترين انه ليس في وسع جثة هامدة ان تمشي بين الناس حيث قد تلقى بعض الاصدقاء السابقين .

ولكنها ظلت برهة معقودة اللسان عاجزة عن النطق ، وقد هالها ما ينطوي عليه هذا النبأ من المعاني والاحتمالات . إنها لم تكن تتوقع قط مثل هذا الإيضاح الخطير الرهيب ، ومن السهل عليها الآن ان تفهم سر ما في مسلكه من الغرابة والشذوذ، وان ذلك لم يكن مبعثه الغدر والنكث بعهدها بل لقد تبينت مدى ما يقع عليها من المسؤولية فيما اقدم عليه ، فلا سبيل بعد اليوم إلى التفكير في التخلي عنه ولو فتر حبها له فإنهما في هذا الامر معا . ولكن إلى اي مدى دفع به حبه لها وهيامه بها ؟

وسألته إذ هالها شك مريع قام في نفسها :

- من الرجل الذي كان بالسيارة ؟ وكيف مات ؟

فاجابها في لهجة ابعد ما تكون عن لهجة القاتل الاثيم :

- إنه يدعى "بيلي" وكان احد مرضاي .

فقالت في اضطراب :

- "رتشارد" ! إنك لم ...

فقال في تفكه مرير :

- كلا لم اقتله ، إذا كان هذا ما تقصدين . لقد مات في عيادتي بنوبة قلبية.

واستطردت "نورا" قائلة :

- إني اريد ان اعرف الحقيقة . لماذا اشاع في نفسك مرأى ذلك الرجل الرعب

والهلع ؟

اجابها في صراحة :

- إنه طبيب سبق ان التقيت معه في "سان فرانسيسكو" فخشيت ان يعرفني.

- لا اصدقك .. إن ثمة امرا تطويه عني واحب ان أعرفه !

بيد انه لاذ بالصمت، فقالت وهي تنثني عنه :

- حسنا .

وسارت نحو الباب مترددة وهي تتمنى ان يستوقفها ويبثها ما يعتلج في صدره ويأتمنها على مكنون سره مهما يكن لذلك من العواقب والآثار .

وهتف "رتشارد" فجاة :

- انظري .. تعالي هنا .

واخذها إلى غرفته حيث اخذ حزمة من القصاصات من تحت طبقة من ثيابه وقدمها إليها في صمت . وما كادت ترى صورته وصورة حطام السيارة وتقرا نبأ موته حتى سرت في جسمها قشعريرة هائلة وشعرت بالدم يجمد في عروقها .

نظرت إلى "رتشارد" . لم يعد به شيء من الجزع والاضطراب فقد شعر بانه قد رفع عن كاهله عبئا مرهقا ثقيلا بمقاسمتها سره .

فاعترضت عليه وهي تشير إلى القصاصات قائلة :

- وخاتمك وساعتك ومفاتيحك ؟

فاوما براسه قائلا :

- نعم .. تلك أشيائي حقا، ولقد استطعنا بذلك يا "نورا" ان نرحل معا .

فدنت منه وجلست على ذراع مقعده ووضعت يدها على ساعده .

واستطرد يقول في لهجة الطفل الذي يقص حلما كريها :

- كدت اجن في ذلك اليوم! فلقد كتبت إلى "لوسي" رسالة اصارحها فيها بكل شيء ولكني لم اجرؤ على إرسالها ، وعند ذلك اقبل "بيلي" .

فقالت "نورا" وهي ساخطة على نفسها، إذ اضطرته إلى الإفضاء إليها بسره الرهيب :

- لقد توسلت إليك كثيرا ان تتخلى عني وتدعني وشاني ولكنك أبيت إلا ان تتشبث بي، وقلت إنك ستجد وسيلة من الوسائل وهاأنذا قد وجدت الوسيلة حقا. وزاد حزنها وشعورها بمسؤوليتها التفكير فيما تجشم من الالم حين كان يحاول مخادعتها وكتمان الحقيقة عنها .

وقالت في استخذاء :

- كيف امكن ان تتوقع النجاة من عواقب هذا العمل الخطير ؟ سوف يكتشفون الحقيقة إن عاجلا او آجلا ، اليس كذلك ؟

اجاب في سذاجة الرجل الذي لم يتعود الحيل والخداع :

- لم يكن هذا اعتقادي، ولكني الآن غير واثق بحسن المآل . لقد بدا التحقيق في الحادث ولكن ليس ثمة نبا عنه فقد كنت اراقب الصحف كل يوم .

- ولكن "بيلي" ؟ الا يحاول رجال الشرطة الوقوف على ما حدث له ؟

فقال يطمئنها :

- إنه كان يعيش وحده خاليا من الأهل والاصدقاء ، وإنني لارجو الا يخطر لهم وجود اي صلة لي باختفائه .

فقالت له :

- انت ترجو ولكني افهم الآن كل شيء .

ثم بدا شعورها بانهيار املها في حياة زوجية سعيدة يحز في نفسها فاردفت:

- لن تستطيع ان تعمل كطبيب ، ولن استطيع ان اصير زوجة لك . لقد تبددت آمالنا كلها .

فقال لها :

- إني أعلم اني افسدت امرنا إفسادا لا سبيل إلى تداركه ، ولكني كنت احب

ان هذه المغامرة ستفضي بنا إلى ما نحبه ونرجوه .

وكان صوت الحكمة والعقل يحفزها إلى التنكر له وقطع كل صلة به في الحال، ولعل في هذا إرضاء لهما، ولكن ما يتمثل في نظرات "تالبوت" من الصدق والإخلاص كان اقوى في نفسها من كل حجة ودليل فقالت في هدوء :

- حسنا .. سنحاول إنقاذ الموقف حسبما نستطيع ، وسابحث غدا عن عمل؛ إذ ليس في وسعك ان تقدم على أية مجازفة .

قال في عجز وخنوع :

- "نورا" : إنك لن تتركيني . اليس كذلك ؟

فقالت في دهشة :

- اتركك ؟ لا .. فما فعلت هذا كله إلا من اجلي ، وعلى كل حال سنواجه معا ما تاتي به الأقدار .

وكانت يدها لا تزال مستقرة على ساعده فقبلها كانه لا يجد وسيلة أخرى للإعراب عن شكره وامتنانه .

- 11 -

كانت الحياة - حتى في ذلك الفندق المنعزل المتواضع - تتطلب نقودا ، فقبلت "نورا" العمل كمغنية بملهى "ديناردو" وهو العمل الذي طالما عرضه عليها . ولم يخب ظن "نورا" في وفائه وكياسته؛ إذ لم يحاول قط ان يسال عن شيء مما تؤثر كتمانه .

اما "رتشارد" فقد ظل سجينا بالفندق ، وليس لديه ما يشغله سوى الاستسلام للاضطراب والقلق والأسى ، خصوصا حين راى تلك الحياة الحرة التي كان يطمح إليها ويمني نفسه بها قد باتت بعيدة عنه بعد نجوم السماء ، فما كان في الحق اقدر من "نورا" على حياة التخفي والظلام .

لقد كانت جريمته تشويه جثة "بيلي" الذي قضى نحبه بأسباب طبيعية ، وإضفاء اسمه وشخصيته عليها . وما كانت هذه الجريمة إلا شيئا ضئيلا لا يكاد يذكر إذا قيست بما تزخر به الصحف كل يوم من أنباء الشر والإجرام .

فليس لـ"بيلي" من الأهل من يروعهم اختفاؤه ، ولقد لقي مصرعه على يد الطبيعة لا على يده .

بيد أن ثمة فئة من الناس يحسن بهم أن يتنكبوا سبيل الجريمة في مختلف صورها ودرجاتها ، و"رتشارد تالبوت" من هذه الفئة . ولقد كانت حياته قبل أن يعرف "نورا" بريئة من الشوائب ليس فيها ما يمتد إليه سلطان القانون في أخف أوضاعه ، ومن الطبيعي أن تبهظه وطأة مركزه الراهن ، وأن يضاعف من إحساسه بهذه الوطأة ما اقترف في حق زوجته وولديه .

ولم يكن ثمة ما يشد عزمه ويسكن ألمه ويحثه على الصمود والاحتمال غير وجود "نورا" بجانبه ، ولكنها الآن قد عادت إلى العمل وكثيرا ما تتغيب في أثناء النهار لحضور "البروفات" وتنفق الليل بملهى "ديباردو" ، وهكذا حرم معظم اليوم مما كانت تبثه في نفسه من الشجاعة والعزم .

وقد حيل بينه كذلك وبين الانصراف إلى العمل كطبيب أصبح العمل جزءا من وجوده ، فلم يبق أمامه غير انتظار تلك الأوقات القليلة التي تؤنسه فيها "نورا" بحضورها ، وحري بهذا كله أن يحطم رجلا أصلب من "تالبوت" عودا وأشد مراسا .

أخذت هوة الضائقة تزداد على مرّ الأيام شدة واستحكاما ، ولجأ "تالبوت" إلى الشراب لينفس عن كربه حتى تمكن منه سلطانه شيئا فشيئا ، وكان الحصول عليه سهلا ميسرا ، فليس عليه إلا أن يقرع الجرس للخادم فيجد الشراب بين يديه في غرفته .

لم يعد ذلك الرجل الذي قال لـ"نورا" – وهو يعالج ركبتها – إنه يحتفظ بقليل

من الشراب للأغراض الطبية ، بل كان يمثل وحده بين جدران غرفته مأساة رهيبة يصطرع فيه الشغف الجديد والمبدأ القويم القديم، وإن كان الأول لا يفتأ يتقدم في طريق الانتظار، وكان أيضا من بواعث إحساسه بالإثم والعدوان .

ثم أخذ يفقد بالتدريج شعوره بالكرامة وحرصه عليها ، وظهرت آثار ذلك أول ما ظهرت في سمته وهيئته؛ إذ بات يكره ان يفكر في مظهره حتى من أجل "نورا" .

تحولت عواطفه عن "نورا" إلى وجهة الغيرة ، لا من "ديناردو" فحسب بل ومن تلك الحياة التي عادت إليها والتي كانت تحياها قبل أن يلتقيا؛ فقد كان يتعذب عذابا شديدا في التفكير فيمن عساها ان تلقاه من الناس بعيدا عنه .

إن العالم حافل بالذين لا يكتمون سرا ولا يخشون شيئا ، وهم يرونها في أوج نشاطها ومرحها ، أما هو فلا يراها إلا بعد ان ينهكها العمل ويستنزف قواها . أجل إنها تحيطه ببالغ الحب والرعاية ، ولكنه لا يشعر في حضرتها إلا بأنهما يجاهدان معا تيارا عنيفا ثائرا .

احتدمت نيران الغيرة في فؤاده ذات يوم؛ إذ قرأ الفقرة التالية بإحدى المجلات الفنية: "هل لاحظت تألق عيني "فيل ديناردو" عندما تغني "نورا برنتيس" ؟"

وسرعان ما تناول الهاتف واتصل بملهى "ديناردو" قائلا :

– أريد محادثة الآنسة "نورا برنتيس" .

بيد أن الجواب لم يكن مرضيا فصاح مغضبا :

– ابحث عنها؛ إذ لا يهمني ان تكون مشغولة بـ"البروفة" !

فلما أقبلت "نورا" إلى الهاتف لم يجد ما يستطيع قوله لها فاكتفى من ثورته الصاخبة بإعادة السماعة إلى مكانها وطلب كأسا أخرى .

عادت "نورا" بعد انتهاء "البروفة" إلى الفندق حائرة متهافتة ، وكان "رتشارد" لم يحلق ذقنه ولم ينظم شعره، وراعه ما في عينيها من لوم صامت وعتب حبيس

وإن لم تفه بحرف فقال :

- ما أحسبك تزعمين انك انفقت نهارك كله في البروفات .

فاجابته :

- إنه عرض جديد وثمة كثير من العمل .

فقال ساخرا :

- في وسعي تقدير ذلك.

فقالت في هدوء آله وامضه :

- إنني لم اختر لنفسي هذا النوع من الحياة يا "رتشارد" ، أفلا يجمل بنا - وقد الجئنا إليه - ان نتحمله في دعة وسكون ؟

- حسنا .. وما رأيك في العشاء ، هل تتناولين الطعام معي الليلة ؟

- لا استطيع ذلك الليلة ، فإن عليّ ان ارتدي ثيابي واعود إلى الملهى .

فقال متذمرا :

- ومعنى هذا انه ينبغي ان اتناول الطعام وحدي مرة أخرى ، وإنه لامر بغيض بهذه الغرفة الضيقة .

- إنني انفق معك اكثر ما استطيع إنفاقه من وقتي .

ورأى في هذه الكلمات سخرية تثير الضحك والأسى معا ، فلقد ذكرته شكواها في "سان فرانسيسكو" من مضاضة الوحدة والانتظار . إنه الآن هو الذي يعاني مضاضة الوحدة والانتظار ويعيش من كدها ولا يراها إلا فيما يسمح به عملها من فترات . وهنا طرق الباب فسألها "رتشارد" :

- من هذا ؟

وكان يعلم انها ستتظاهر بعدم ملاحظة ما ناله من الفزع، وسارت نحو الباب وهي تتكلف التؤدة والتمهل، لكي تبعث في نفسه القلقة شيئا من الاطمئنان .

واعطاها غلام ربطة صغيرة وإيصالا وقعته واعادته إليه .

وسألها "تالبوت" محتدا :

– ما هذا ؟

فتمتمت وهي تمزق الغلاف :

– ستعرف لو أمهلتني حتى أفتحها .

فتحت الربطة وأخذت منها بطاقة زيارة، فدنا منها "ريتشارد" فقالت :

– إنها من "فيل" .

– هذا ما توقعته .. أريني إياها .

اختطف العلبة الصغيرة من يدها وهي لا تملك نفسها من الدهشة . ولم يكد يرى ما بها حتى صاح مهتاجا :

– إنها هدية صغيرة كبيرة الثمن ! لماذا يرسل إليك هذه الحلية ؟ إن الرجل لا يقدم للمرأة حليا إلا . . .

فقطعت عليه الاتهام متحدية :

– إلا لأنه كريم مهذب .

فهتف وهو يكاد يتمزق غيرة :

– لا يكون الرجل كريما إلا لعلة ، ولا ريب أن هذا الدبوس قد كلفه ألف دولار. وأغلب الظن أنها لو قابلت الثورة بمثلها لخفت حدة اهتياجه وانفعاله ، ولكنها لم تغضب ولم يفارقها هدوءها بل وقفت تنظر إليه عاتبة عليه رأيه . لقد كانت تعلم ما يبهظه من أثقال الوحدة والانقباض ، ولقد كانت تعلم أنه يكابد حزنا مريرا من اضطراره إلى الاعتماد عليها ، وليست هذه الثورات الجامحة الطائشة إلا المظهر الخارجي لما تنطوي عليه نفسه من صفات نبيلة ضلت سواء السبيل .

جاهدت نفورها واستياءها وقالت :

– سأعيده إليه ، أيرضيك هذا ؟

– او تحسبينني مغفلا ؟ اتظنين اني اجهل ما يدور بينكما ؟

قالت في ضعف وكلال :

– دع هذا التلاحي بربك يا "رتشارد" .. إنني متعبة ولا يزال امامي كثير من الاعمال فدعني اخرج الآن .

كان حنقه على نفسه يشتد ويزداد ، فلقد ساءه ان يعلم انه المخطئ دونها ، وان استمرارها في البقاء معه اكثر مما يستحق منها او من اية امراة سواها ، ولو هبطت إلى مستواه واجابته برد خشن أو كلمة نابية لاستطاع ان ينتحل لنفسه عذرا في جوره وتجنيه .. ولكنه – مع ذلك – ينقم منها هدوءها ورباطة جاشها؛ إذ يشعر بانه وحيد فيما يلقى من الجهد والبلاء .

وبينما هي تنثني للانصراف إذ قبض على خصرها بقوة فانكمشت مرتاعة ، وقال في صوت اجش غليظ :

– ماذا دهاك ؟ هل اخيفك إلى هذا الحد ؟ إني لم اكن اخيفك فيما مضى من ايامنا !

وكان طبيعيا ان يسترسل في خطبته العوجاء ومسلكه النابي؛ فلقد رماها بالنفاق والخيانة ، فلم يبق غير نوع واحد من الإهانة لكي تتم السلسلة ، وهاهوذا يقدم عليها؛ إذ ضمها إليه بوحشية وقبلها على الرغم منها .

تخلصت منه بعد بضع ثوان ، وراحت تنظر إليه في ازدراء عنيف ساحق ثم قالت :

– هل انتهيت ؟

توالت على ذهنه موجات صاخبة متعاقبة من تاجج الهوى والخجل مما فعل ، ثم خطا إلى الامام وصفع وجهها .

جمدت "نورا" في مكانها لحظة ، ثم اندفعت راكضة إلى غرفتها .

ووقف "رتشارد" امام بابها المغلق يهتف باسمها في الم وهو يسمع نشيجها.

- 12 -

كان آخر رواد ملهى "ديناردو" يغادرونه عندما جلست "نورا" بمقصورة زينتها تزيل مساحيق الزينة ، وسمعت طرقا على الباب وصوت "ديناردو" فاذنت له بالدخول .

قال وهو يجلس :

– لا ريب انك متعبة .

– قليلا .. كيف الحال الليلة ؟

– على ما يرام بفضلك ولكن هناك شيء واحد أفسد عليّ صفو هذا المساء .

– ما هو ؟

– ذلك الدبوس . لماذا لم تتحلي به ؟

– لقد كنت راغبة في ذلك لولا ان هناك ما يمنعني، ولا اكتمك انني لن استطيع قبوله .

– لماذا ؟

– إني اعاني عناء كثيرا ولا احب ان ازيد الامور سوءا .

وكان هذا إيضاحا او تعليلا لرغباتها وتصرفاتها ، ففكر قليلا في رفضها بدون ان يغضب ثم قال :

– لقد عرف كل منا الآخر منذ عدة سنوات ولكنني لم احاول ان انال منك شيئا، لان المرء لا يحاول مثل هذا مع الفتاة التي يريد ان يتزوجها .

كانت نبرات صوته تشف عن الصدق والإخلاص فقالت "نورا" :

– بربك يا "فيل" .

فقال لها :

– ولكنني اعني ما اقول ، وما تجهلين أنني احبك منذ زمن طويل .

فبدا في عينيها من الرقة والحنان ما يكذب الكلمات التي كانت تهم ان تلقي

إليه بها ، وقالت :

- إنك فتى ظريف جدا ولكن . .

قطع عليها كلامها صوت لاذع ينبعث من عند الباب قائلا :

- ما هذا ؟ "ابروفة" اخرى ؟

فالتفتا معا إلى "رتشارد" وقد اضفت الدهشة على حركتهما معنى الفزع والشعور بالإثم . وكان في وجه "رتشارد" الذي نما به الشر وفي نظراته الشاردة الملتهبة ما ينذر بالويل والشر .

قال "ديناردو" ناظرا إليه بدون ان يقوم عن مقعده :

- هون عليك يا "طومسون" فليس في الامر ما يغضبك .

وكان "تالبوت" يحملق إلى "نورا" ثم صاح بها :

- اخرجي ! . . اتركي هذا المكان !

مكثت "نورا" مكانها، إذ لا يسع امرأة لها شيء من الكرامة ان تخضع لمثل هذا الامر . ونظر إليها "دينادرو" بشجعها، ثم وقف والتفت إلى "رتشارد" وقال في صوت اقل رقة ولينا :

- انتظر لحظة . . إن المكان ملكي ، وقد جرت العادة بان اكون انا الذي يقذف بالدخلاء إلى الخارج .

فصاح به "تالبوت" :

- تجنب "نورا" . . إنني انذرك.

واجابه "دينادرو" :

- يلوح لي انك اسرفت قليلا في الشراب يا صاح ومن الخير ان تذهب إلى الخارج .

وقصد إلى "رتشارد" واخذ بذراعه ليقوده لا ليرغمه على الخروج . وادركت "نورا" ما يوشك ان يحدث ولم يتسع امامها الوقت لتلافيه؛ فما كاد "فيل" يقبض على ساعد "رتشارد" حتى صفعه هذا صفعة قوية اشتبك الرجلان بعدها في صراع عنيف

بلغت ضجته مسامع الخدم والعمال ، وسرعان ما هوى "ديناردو" إلى الخلف، واصطدم راسه بالموقد في اثناء سقوطه فظل ممددا على الارض لا حراك به .

سمعت "نورا" وقع اقدام مسرعة في الممشى فصاحت بـ"رتشارد" وهو يحملق إلى "ديناردو" بذهول :

– اخرج ! .. ستاتي الشرطة ! اخرج !

جرى "رتشارد" في الممشى حيث تخلص من اثنين من الخدم واندفع إلى باب الخروج . ولما اوشك ان ينفذ من الزقاق إلى الشارع راى شرطيا ، وكان هذا كفيلا بان يملا نفسه رهبة وذعرا ،فجمد في مكانه بدلا من ان يبادر إلى تجاوزه قبل ان ترتفع الاصوات بالاستغاثة ، فلقد ظل عدة اشهر يرهب المطاردة ويخشاها ، وهاهوذا الآن يجد نفسه في غمارها .

كر راجعا ولكنه راى الخدم مجتمعين عند الباب ، وهنا لمح سيارة "ديناردو" فاسرع إلى ركوبها وانطلق إلى الشارع .

ولم يكن يسمع مع ضجة المحرك سوى صفارات الشرطة كانها مجموعة موسيقية توقع لحنا مركبا ، وراح يقطع الشوارع التي كادت تقفر من المارة في شكل مرهب حمل إحدى سيارات نقل البترول على اقتفاء اثره ، فاطلق للسيارة اقصى سرعتها ، وادار راسه لينظر خلفه ، فلما التفت إلى الأمام ثانية لم ير الطريق خاليا ممتدا أمامه بل أبصر سيارة نقل ضخمة تقبل عليه مسرعة ، ولم يلبث ان شعر بنفسه في غمار عاصفة من الزجاج المتناثر واللهيب المندلع .

- 13 -

كانوا قد اذنوا لـ"نورا" بمقابلته قبل إجراء العملية الجراحية ، وما إن خرجت من عنده حتى استقبلها رجلان من الشرطة ، ودنا منها احدهما قائلا:

– إني آسف على إزعاجك يا آنسة "برنتيس" ، ولكن لابد لنا من إلقاء بضعة

اسئلة عليك ، ولقد تحدثت إلى السيد "ديناردو" ولكني لم اقف منه على شيء . ما سبب تلك المشاجرة ؟

اجابته على الفور :

ـ لا اعرف .

فقال لها الشرطي مبتسما :

ـ هذا جواب لا يقنع احدا فقد حدثت في مقصورتك ، اليس كذلك ؟

ـ بلى ، ولكنها حدثت بسرعة فلم ..

ـ اين تقيمان ؟

ـ بفندق "رذر فورد" .

ـ ومن اين جئت ؟

ـ من "سان فرانسيسكو" .

ـ و"طومسون" ، هل هو من "سان فرانسيسكو" ايضا ؟

ـ لا اعرف بلده .

انتهت المقابلة بعد أن أعلنها بعدم مبارحة المدينة ، وبعد انصرافها سأل رفيقه عما عثر عليه في ملابس "طومسون" ، فاجابه بانه لم يجد سوى دفتر توفير وبضع فواتير من الفندق . وفحص الشرطي دفتر التوفير فلم يلبث ان قال :

ـ ستة آلاف دولار ! لقد اودع في 7 تشرين الاول (اكتوبر) ستة آلاف دولار ، فمن اين لمثله هذا المبلغ الضخم ؟ .

لم يسأل رجال الشرطة "نورا" بعد ذلك طوال فترة علاج "رتشارد" ، فظنت انها نجحت في تضليلهم والتخلص منهم .

ولقد طغى على خوفها من إجراءات الشرطة التفكير في المشكلة التي تواجهها ، ولكن سرعان ما وجدت لهذه حلا ! إذ انها ترتبط الآن بـ"رتشارد" ارتباطا ابديا لا تنفصم عراه ، وكان اعتزامها البقاء معه وملازمته راجعا إلى حبها له من ناحية،

وإلى تلبية نداء الواجب من ناحية أخرى ، ولكنه كان عزما ثابتا لا يتزعزع .

في اليوم المحدد لرفع العصائب والضمادات عن وجهه بعد أن مضى على الحادث عدة أشهر ، حملها "فيل" إلى المستشفى في سيارته .. ولقد كان خلال تلك الفترة العصيبة خير مساعد لها ، وتجاوز في نبله وإخلاصه كل ما كانت تظن وتتوقع .

وعندما بلغا المستشفى سألها هل يبقى في انتظارها فأجابته :

- لا ... أوثر ألا أراك وسأعود به إلى الفندق في سيارة أجرة ، ولن نلتقي ثانية .

كانت ترى أن علاقتها بـ "رتشارد" منذ اليوم يجب أن تكون خالية من كل ما يثير غيرته وشكه ، كما عاهدت نفسها أن تتوخى رضاه في كل ما تقول وتفعل .

ودعها "دينارديو" حزينا آسفا ، فاعتلت درجات سلم المستشفى وكان "رتشارد" في ثياب الحمام يذرع الغرفة قلقا مضطربا ، وقد سترت العصائب وجهه كله فلم يبد منه سوى عينيه .

سألته "نورا" :

- كيف حالك اليوم ؟

أجاب :

- أشعر بشيء من القلق .

- هذا ليس بالأمر الغريب ، فلقد ظللت الأسابيع الطوال تنتظر رفع العصائب .

وأجاب في ذلك التفاؤل الصبياني الذي لم يكن يفارقه حتى في أحرج الأوقات :

- لعل ذلك نعمة من النعم؛ فلقد أصيب وجهي بكثير من الحروق الشديدة وشظايا الزجاج المحطم ، وإذا تغيرت قسماته تغيرا كافيا فلن يعرفني أحد ولن أضطر إلى الاستتار والفرار من الناس وربما استطعت أن أجد عملا أقوم به .

فلم تفه "نورا" بما يؤيد قوله أو ينفيه .

أقبلت الممرضة والطبيب في أثرها وأكب على العمل ، فلما فرغ من ذلك انثنى

قائلا :

- رائع !

هتف "رتشارد" :

- ما رأيك يا "نورا" ؟

اجابت وهي تغالب جزعها من المنظر الكريه الذي وقع عليه بصرها :

- رائع !

ذهب "رتشارد" إلى المرآة ووقف امامها يتأمل وجهه ، وكان دميما مروعا ..

وحاولت "نورا" ان تواسيه فقال :

- هذا ما كنت ابغي .

وما كادت تغادر الغرفة مع الطبيب لإمضاء بعض الاوراق تمهيدا لإخراجه من المستشفى حتى فتح باب الغرفة ثانية ، ونظر "رتشارد" بدون اهتمام ليرى عند الباب رجلين أحدهما أصلع كبير الأذنين جدا والثاني ممتلئ الجسم غليظ العنق .

قال الرجل البدين :

- هيا يا "طومسون" .. ارتد ثيابك .

فسأله في دهشة :

- من انت ؟

- شرطة ، وانت ذاهب معنا .

قال "رتشارد" :

- اظن ذلك من اجل المشاجرة ؟

فأجاب ذو الأذنين الكبيرتين :

- لا .. إنك راحل في نزهة قصيرة إلى "سان فرانسيسكو" .

واردف الرجل البدين قائلا :

- الدكتور "رتشارد تالبوت" ، ايحمل هذا إليك معنى ؟

قال "رتشارد" :

– هل وفقتم إلى الأمر ؟ ولكني مسرور مع ذلك .

فقال الرجل البدين لصاحبه :

– مســرور ! هذه أول مرة في حياتي أشهد رجلا يسره أن يقبض عليه بتهمة القتل .

وكان هذا الاتجاه لم يطف برأس "رتشارد" أو يعلق به خياله ..

التفت إليه الرجل البدين قائلا :

– لقد وجدوا في "سان فرانسيسكو" مجموعة من البصمات تطابق بصماتك، وانت مقبوض عليك بتهمة قتل الدكتور "رتشارد تالبوت" .

وراح الشرطيان يتبادلان نظرات الدهشة والذهول؛ إذ أبصرا المتهم يهتز اهتزازا عنيفا .

وما كان يهتز من الخوف والهلع .. بل من عاصفة من الضحك العنيف الجامح!

- 14 -

كان لهذه المحاكمة وجهان مختلفان : فإما أن يحاكم "روبرت طومسون" على قتل الدكتور "رتشارد تالبوت" وهي تهمة معقولة، وإما أن يحاكم الدكتور "تالبوت" على قتل "تالبوت" وهي تهمة لا معنى لها على الإطلاق . ولم يكن فيمن تضمهم قاعة الجلسة – وبينهم "لوسي" والدكتور "موريان" واحد موظفي المصرف – من يعرف الحقيقة سوى "نورا برنتيس" و "رتشارد" نفسه. ولم تدع "نورا" لأداء الشهادة ، ولم تكن تعرف حتى هذه الساعة الخطة التي عول "رتشارد" على انتهاجها .

قال القاضي :

– أنت متهم بابتزاز النقود بالتهديد من الدكتور "رتشارد تالبوت" ، وقتله

عمدا فما قولك ؟ مذنب ام غير مذنب ؟

ولكن الجواب كان يختلف عما الفت الحاكم من إنكار التهمة بلا استثناء ، فقد وقف محامي المتهم قائلا :

- لقد ابى المتهم كل الإباء ان يتفاهم معي في تفاصيل القضية، ولذلك أشعر بأنني عاجز عن تمثيله التمثيل الصحيح، والتمس ان تعفيني المحكمة من هذا الواجب .

وقال القاضي بعد ان صمت لحظة :

- انكر التهمة . إن من حق المتهم ان يحافظ دائما على الحقوق المخولة له بموجب الدستور، وما دام يلوذ بالصمت ويأبى الكلام فإننا نامر بإثبات إنكاره للتهمة وبالاستمرار في نظر القضية .

سارت القضية في مجراها فانتقل الدكتور "جوييل مورياك" إلى مقعد الشهود وراح يروي للمحكمة كيف اثارت تلك القصاصة من الورق ارتيابه ، وذلك التمثال المكسور . ولم يكن يعرف ان هذه القصاصة هي البقية الباقية من رسالة إلى "لوسي" وان التمثال لم يكسره "رتشارد ، الذي ظل مطرقا براسه إلى الارض وقد اشتعل راسه شيبا على اثر الحادث الاخير . ولم تدر "نورا" ما ينطوي تحت صمته المطبق من الخطط والنيات .

ثم ادلى موظف المصرف بشهادته ، وهي تؤيد الاعتقاد بان "روبرت طومسون" قد ابتز من "تالبوت" مبلغا ضخما قبل قتله .

وتلاه الخبير الكيمائي فقرر ان تحليل فراش السيارة اثبت وجود آثار قوية لمادة الكحول ، وأن البصمات التي وجدت على زجاجة الكحول التي عثرت عليها الشرطة على مقربة من مكان الحادث تطابق بصمات "طومسون" .

وفي اليوم الثاني والأخير من ايام المحاكمة وقع حادث لم يكن يعرف خطورته سوى "نورا" و "رتشارد" ، فقد استدعيت "لوسي" كشاهدة نفي بناء على طلب الدفاع .

وقد كان من المحتمل ان تعرف الزوجة زوجها على الرغم مما نال وجهه من التشويه

والتغيير ، حتى لقد اخذت "نورا" تسال نفسها هل يختار "رتشارد" هذه الفرصة للكشف عن شخصيته وإعلان الحقيقة ؟ .

جلست الزوجة في مقعد الشهود وهي ترتدي ثياب الحداد ، واشراب عنق "نورا" إلى "رتشارد" كما اشرابت اعناق الحضور جميعا، ولكنه زاد من إطراقه بدلا من ان يرفع راسه فكادت "نورا" تصعق هولا .

إنه لا يريد ان يعرفه احد ، ولا يريد ان يعيش !

سالها محامي الدفاع :

- الم تري المتهم قبل ذلك .؟ فحدقت إليه طويلا ، و"نورا" ترتجف شوقا وقلقا، ولكن الزوجة حولت بصرها إلى القاضي اخيرا وهي تقول :

- لا .. لم اره قط .

وانتهت مرافعات الدفاع والاتهام وانسحب المحلفون للتداول ثم عادوا بعد قليل . ونطق القاضي بالحكم .. وكان الإعدام .



ظلت "نورا" نهبا للخواطر العنيفة المتضاربة حتى اذن لها بزيارة "رتشارد" . وما اقعدها المحلفون عن التدخل في القضية وإماطة اللثام عن سرها ، ولكنها رات في تصرفات "رتشارد" ما اقنعها بانه ينتهج خطة اطال فيها الإمعان والتفكير ، وإن لم تعرف الغاية التي يهدف إليها فلما راته خلف القضبان الحديدية غلبها الهم والاسى ، فلم تستطع سوى النطق باسمه وقال "رتشارد" :

- لقد توسلت إليك الا تجيئي إلى هنا ، اتريدين ان يرهقوك بالاسئلة من جديد؟

اجابت "نورا"

- لست احفل بذلك ، وهيهات ان اتركك تستسلم على هذا النحو للخاتمة المروعة ، ويجب ان تظهرهم على الحقيقة ..

- وماذا عساي ان افيد من وراء ذلك ؟

- حياتك .

- وماذا تكون هذه الحياة ؟ إلى اين اذهب ؟ واي عمل استطيع ؟ ايكون في وسعي استئناف عملي كطبيب ؟ ايمكن ان اعود إلى اسرتي ؟ اتحسبين ان افسدها واشوهها ؟ من الخير ان ينتهي الأمر بهذه الخاتمة .

قالت "نورا" :

- اجل، فسيصفحون عنك .

- واولادي ؟ إنهم يحتفظون لي بذكرى حسنة نقية .

وكانت "نورا" تعتمد على حبه لها في إقناعه؛ فلقد كان جزعه من لقائها اوضح دليل على انها الصلة الوحيدة التي تصل ما بينه وبين الحياة، ولكنه يفرط الآن في هذه الصلة بحجج قوية لا تحتمل الجدل ، وليست به حاجة إلى الحديث عن حبه ، فإن موقفه الحاضر ابلغ دليل على قوة هذا الحب التعس .

وقال :

- لقد قتلت رجلا حقا .. قتلت "رتشارد تالبوت" .

قالت والحزن يذيب فؤادها:

- لعلك لا تكلفني ان اعيش معذبة كلما ذكرت انه كان في وسعي ان انقذك ولم افعل .

اجابها في حنان بالغ :

- إذا كان في وسعي ان اموت مع هذه الذكرى ففي وسعك ان تعيشي بلا ريب .

وودعته الوداع الاخير ، ثم خرجت إلى الطريق في خطى يثقلها الشجن والأسى حيث كان ينتظرها - بدون ان ندري - "ديناردو" ، ذلك الصديق الوفي النبيل .

تمت بعون الله